3

دراسات عصرية
من مكتبة القذافي السياسية

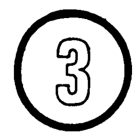
الإستعمار



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

الإستعمار

دراسـات عصـريّـة
من مكتبـة القـذّافى السّياسيّة



محسن يوسف الحويشي

الإستعمار



المركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

الطبعة الثانيـة

1990 م

رقم الإيداع : 612

هاتف: 40705 - 45565 ـ مبرق: 20032 - 20668

ص.ب: 80984 ـ طرابلس ـ الجماهيرية

حسن يوسف الحموشي

مُقَدِّمة

إذا أردنا تقويم (فكر) يفرض ذاته بين الأفكار المطروحة، محللاً قضايا العالم السياسية المعاصرة، وداعياً إلى تصحيح مفاهيم تم تحريفها، فعلينا أن نفحص ونحلل بادىء ذى بدء هذا الفكر وتوجهات صاحبه قبل أن نحكم له أو عليه.

«الاستعمار» كتاب يتحدث عن الاستعمار كظاهرة من الظواهر السياسية فى العصر الحديث، يحلله ويبين أسباب ظهوره وشروطه وكيف تظهر هذه الظاهرة ومتى، وما هى الأساليب والوسائل للوقاية والتحرر من الاستعمار؟؟

هذا ما يبينه هذا الكتاب الذى بين يديك، بالرغم من أنه يتحدث بالإضافة إلى ذلك عن الثأر والثورة والتمرد والعصيان والكفاح المسلح ومقاومة الفاشية والعنصرية والصهيونية والأمبريالية، لماذا؟ لأن الاستعمار أولاً لا يتم التحرر منه إلا بهذه الأساليب، وثانياً لأن صوره تعددت.. فعندما تذكر

الاستعمار، فإنك تذكر في الآن نفسه الأمبريالية والعنصرية والصهيونية والفاشية.

بالمقابل تجد في هذا الكتاب الدعوة إلى الحق الجماهيري في السيادة والحرية والمساواة بين الشعوب وحق تقرير المصير وعدم الاعتداء واحترام حدود وثروات الشعوب الصغيرة من قبل الشعوب الكبيرة. ومع ذلك أيضاً فأسلوبه يتميز بالبساطة والتعمق في التحليل، وهي سمات أكثر ما تشد القارئ إليه.

كل هذا تجده في كتاب «الاستعمار» لماذا؟ لأنه من فكر معمر القذافي، والذي قرأ واستمع لمعمر القذافي، يعرف كيف يطرح معمر القذافي أفكاره وآراءه حول القضايا المعاصرة التي تهم الإنسان أينما كان.

إن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، إذ يقدم هذا الكتاب ضمن سلسلة من الدراسات العصرية، من مكتبة القذافي السياسية، تتناول الثورة والقومية، والوحدة، والعلاقات الدولية والإرهاب والإرهاب السياسي، وغيرها، فإنه يأمل أن تتسع هذه المكتبة وتشمل قضايا أخرى معاصرة كالأمبريالية والعنصرية والصهيونية من أجل توضيح الرؤية أمام الإنسان في نضاله من أجل الحرية.

شعبة البحوث والدراسات
المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

توطئة

تعريف الاستعمار :

تشير كلمة « استعمار » لغوياً إلى معنى الإعمار . كما أنها تفترض وجود خراب أو فراغ أو تأخر فى منطقة أو بقعة ما من العالم ، فيجد المستعمر من هذه الحجج ذرائع للقدوم إلى هذه المواقع الجغرافية واحتلالها بدعوى « إعمارها » ، وبحجة تحويل حالة التأخر التى يقبع فيها أهل هذه المنطقة أو تلك إلى وضع أفضل من خلال مشاريع البناء والإعمار والتحديث .

أما المعنى السياسى لهذه الكلمة ، فإنه يعنى استعباد الشعوب من قبل المستعمرين، ذلك أن واقع الاستعمار يتميز بأنماط معينة منها: الاستعباد ، السيطرة، ثم الاستغلال.

وإذا كان المستعمرون يعتقدون بأنهم يقومون بالأعمار والبناء من أجل مصلحة البلاد. وان الاستعمار عندهم له مدلول ايجابي فان واقع الحال هو ليس كذلك. فالشعوب التي تعرضت للاستعمار قد عانت منه كثيراً وهي تعتبره مدلولاً سلبياً فأينما حل الاستعمار كان الاستغلال والاستعباد.

وانطلاقاً من هذا التعريف يمكن القول بأن الاستعمار كحركة سياسية توسعية مستغلة يتطلع إلى مناطق النفوذ التى غالباً ما تكون مناطق فراغ بالمعنى السياسى والاقتصادى والاجتماعى للكلمة. فعندما ظهرت الثورة الصناعية فى الغرب، أصبح المستعمرون الغربيون يخلقون الظروف ويقدمون الذرائع للانتقال إلى عالم جديد خال من أى نشاط.. ومن هنا نمت ظاهرة «الاستعمار»، وأخذت أبعاداً سياسية واقتصادية واجتماعية بسبب الفراغ الحاصل فى تلك المناطق والذى ساعد المستعمرين على تحقيق أهدافهم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن حالة الفراغ لا تعنى فقط مجرد اندفاع طبيعى من منطقة مرتفعة إلى أخرى منخفضة، حسب المفهوم الطوبوغرافي للطبيعة، وإنما تعنى على الجانب البشرى وجود منطقة مكتظة بالسكان وأخرى قليلة السكان. ومع دولة قوية وأخرى ضعيفة. وقد تعنى أيضاً اندفاع أناس جائعين باتجاه مكان غنى فيه قوت، أو طعام غير مستثمر.. كل ذلك يسهل عملية الاستعمار.

أما إذا وقع الاصطدام فهذا يعنى انعدامية الفراغ. فعلى سبيل المثال : إذا دمّر الاتحاد السوفياتى الولايات المتحدة فلا يعنى ذلك أن هذه الأخيرة تشكل فراغاً بالمطلق ، بل هو فراغ نسبى تجلى بكون قوة الولايات المتحدة الأمريكية أقل من قوة الاتحاد السوفياتى ، مما ساعد على التغلب عليها . والأمر هنا لا يؤدى إلى استعمار ما دام الأمر يتعلق باختلال فى المعادلة العسكرية لا بوجود فراغ جيوسياسى (جغرافى وسياسى) .

ويتضح من سياق هذا التحليل الأولى أن الاستعمار يشكل ظاهرة تحاول إعادة صياغة وجودها، مما يدفع إلى الاعتقاد بعدم انتهائها فى أية مرحلة من المراحل المنظورة. وبأنها لا تتعلق بعصر من العصور. بل على العكس من ذلك فإن الاستعمار، ظاهرة يحاول إعادة صياغة وجوده بشكل يتلاءم مع كل عصر فهو يتكرر فى حال توافر مبررات وجوده. لا سيما وأن الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية للاستعمار ليست مرتبطة بمرحلة معينة، وإنما هى مرتبطة بجملة معطيات ظرفية، فى حال توافرها، يقع الاستعمار. وكمثال على ذلك: سقوط المطر، فإنه يتساقط لأن الظروف المناخية المناسبة هى التى تساعد على سقوطه. أى أن المطر ليس مرتبطاً بفصل من الفصول المناخية للسنة، بقدر ما هو مرتبط بتوافر ذات الظروف المناخية التى ينتج عنها، سقوط المطر.

لذا لا يمكن القول بأن الاستعمار مرتبط بمرحلة زمنية محددة، كالقرن التاسع عشر أو القرن العشرين. . حيث أصبح الاستعمار

ينطلق من قاعدة أساسية، تتمثل فى التنافس الدولى على مناطق النفوذ، وتخضع بشكل مباشر للمقاييس الدولية، بحجة الحفاظ على التوازن الدولى. وبذلك أخذ الاستعمار يعبر عن حالته هذه بملء الفراغ؛ باندفاعه كقوة من منطقة إلى أخرى بغرض السيطرة على الثروات الطبيعية للشعوب واستغلالها خدمة لمصالحه الاستعمارية.

فالانقلاب الصناعى الذى حدث فى الغرب ساهم فى خلق دول صناعيه ملأت الفراغ الحاصل فى مناطق كثيرة من العالم، مما أدى الى جعلها سوقاً استهلاكية لتصريف إنتاج الدول الصناعية. كما ترك آثاراً سلبية على دول تلك المناطق، لا سيما فى إفريقيا وآسيا وحتى فى أجزاء من القارة الأوروبية نفسها، وذلك بسبب التنافس الاستعمارى على مناطق النفوذ الذى ساهم فى خلق حالات من التوتر الشديد والذى ظهر بوضوح فى النصف الأول من القرن العشرين، حيث دفع هذا التحول الخطير فى مسيرة الشعوب بعض الدول إلى إشعال الحربين العالميتين الأولى والثانية إضافة إلى ما يواجهه العالم خلال النصف الثانى من هذا القرن من صراع دولى جديد اصطلح على تسميته بـ «الاستعمار الحديث»، الذى يهدف إلى التبعية والتسليم بسياسات الأمر الواقع.

الفصل الأول

أسباب الاستعــمــار وأهــدافه

أولاً ـ أسبابه :

أ ـ الفراغ

ب ـ الضعف

جـ ـ طلب الحماية

د ـ التخلخل والانفتاح

ثانياً ـ أهدافه :

أ ـ ضرب الوحدة

ب ـ تشويه الدين

جـ ـ الاستغلال



أسباب الاستعــمــار وأهــدافه

أولاً : الأسباب :

لعل من البديهى القول أن الثورة الصناعية قد ساهمت فى إفراز وضع جديد أدى إلى اشتداد الموجة الاستعمارية وتحركها بـاتجاه عـالم أصبح يعـانى من التخلف المتنوع الأشكـال والحاصل في جميع مناحى الحياة العامـة . وهذا الـوضع المتخلف شكّل العامل الرئيس لعملية انتشار وتوسع الحركة الاستعمارية ، حيث تمكنت الدول المستعمرة من الاستيلاء على مناطق عديدة من العالم . وأخذت الدول الكبرى تتسابق وتتنافس فيما بينها من أجل التحكم فى ثروات الأمم المتخلفة والسيطرة على مقدراتها . وإذا أردنا أن ننظر إلى الدوافـع الاستعمارية لتلك المحاولات فإننا نجد أنها تسعى للتوسع

خارج نطاقها الجغرافى والسياسى . وعملية غزو مرافق البلدان الصغيرة والتحكم فى ثرواتها الطبيعية واكبتها عملية تثبيت المواقع العسكرية فى مناطق نفوذها بهدف المحافظة على مكاسبها والتحكم بزمام الأمور السياسية والاقتصادية بشكل دائم .

وفى مطلق الأحوال فإن الأسباب الكامنة وراء هذه الموجة الاستعمارية تتلخص فى وجود الفراغ الحاصل والواقع فى تلك المناطق ، سواء أكان هذا الفراغ ناتجاً عن ضعف فى الشخصية السياسية الذاتية المحلية أم بسبب طلب الحماية من قبل السلطات المحلية ، أم بسبب الانفتاح الاقتصادى والسياسى انطلاقاً من التصور السائد الذى يعتبر أن الدول الاستعمارية هى الأكثر تقدماً فى جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الثقافية .

ويمكن تبيان توسع الموجة الاستعمارية وأسبابها من خلال عرض للنقاط الأربع التالية ، التى تشكل فى واقع الأمر الأسباب الأساسية الكبرى لبروز الظاهرة الاستعمارية :

1 ـ الفراغ :

نلاحظ فى بادىء الأمر ، ومن خلال نظرة تحليلية لظهور الاستعمار ، أن الفراغ هو أساس ظهور وبروز الظاهرة الاستعمارية ، لأن الفراغ فى نظر الدول الاستعمارية هو نتيجة

لجملة معطيات (كالجهل والفقر وقلة السكان) . وهذه المعطيات هى التى أملت السياسة التوسعية الاستعمارية وهى بمثابة مسلمات فى القاموس السياسى الخاص بالدول الاستعمارية . وهذه المعطيات كانت الأساس فى القرارات التى اتخذتها الدول الغربية حين قررت احتلال أراضى وبلدان إفريقيا وآسيا ، حيث أنها كانت تعتبر نفسها فى موقع منطقة ضغط مرتفع وتعتبر الشعوب الأخرى فى موقع مناطق ضغط منخفض .

ولا يعنى هذا التحليل أنه لا توجد تطلعات استعمارية فى حال انعدام الفراغ ، ففى حال تداخل سحابة ركامية بسحابة ركامية أخرى ، يؤدى هذا التداخل إلى اصطدام ينتج عنه البرق والرعد . وهذا التفسير المناخى ينطبق على علاقة الدول فيما بينها . فالدولة القوية قد تندفع باتجاه دولة قوية أخرى مثلها ، بالرغم من أن أية واحدة منهما لا تشكل فراغاً سياسياً واقتصادياً . ومع ذلك فإن الاندفاع غالباً ما يؤدى إلى الاصطدام وبالتالى إلى انهزام الدولة الأقل قوة من الأخرى . أما فى حال وجود دولة قوية وأخرى ضعيفة فعندها يقع الاستعمار المباشر .

ومن أجل تأكيد هذه النظرية ميدانياً ، نأخذ على سبيل المثال منطقة البحر الأبيض المتوسط التى تستخدم كموقع عسكرى استراتيجى لتهديد شمال الوطن العربى . فهذا

الوضع يحتم وجود قوة عسكرية فى هذه الدول أو على الأقل فى بعضها، لتملأ الفراغ الحاصل فى هذه المنطقة . أو يكون ذلك باللجوء إلى قوة عسكرية أخرى فى العالم لتقوم بملء الفراغ .

وفى حال تواجد الاستعمار فى منطقة من مناطق العالم فهذا يعنى إن أهل هذه المنطقة غير قادرين على استغلال ثرواتهم ومواردهم وبالتالى فان المستعمرين الذين اندفعوا نحو هذه المنطقة هم الذين سيقومون باستثمارها بدلاً عن أهلها الحقيقيين. وبمرور الزمن يخضع هؤلاء وينصاعون للاستغلال والاستعباد، وعندئذ تكتمل العملية الاستعمارية وتنجح مؤامرات المستعمرين.

وخير دليل على ذلك دول الحلف الأطلسى الذى تتزعمه الولايات المتحدة الأميركية ، والتى تواجدت فى كثير من مناطق العالم كالمنطقة العربية فى خليج عمان والخليج العربى وعلى طول الساحل المتوسطى ، فبالرغم من حجم سكان هذه المناطق وما تتمتع به من ثروة نفطية فإن ذلك كله ذهب سدىً بسبب تمكن الدول الاستعمارية من الاستيلاء عليها . مما ساعد على تغيير التوازن الدولى .

ولا يقتصر هذا الواقع على الحلف الأطلسى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، بل ينطبق أيضاً على الأحلاف الأخرى التى يمكن أن تقوم بالممارسات نفسها . والسبب فى ذلك يعود إلى أن أهل هذه المناطق غير قادرين على الدفاع

عن وجودهم وعن ثرواتهم الطبيعية ، والتى تعتبر أغنى وأهم ثروات العالم . هذا الواقع الذى نتحدث عنه يشكل نوعاً من أنواع الفراغ الذى يستدعى ويساعد على تواجد تلك القوى الخارجية والتى ما زالت تتخاصم فيما بينها بهدف السيطرة .

أما المناطق الأخرى التى تمتلك القدرة على تسيير شؤونها والسيطرة على مواردها الطبيعية وحمايتها ، والتى تمتلك أيضاً أسباب القوة التى تحمى بها نفسها فإنها لا تتعرض لأى خطر لأن قوتها النابعة من ذاتها ومن إرادة شعبها ، تجعل لها حصناً منيعاً .

وهذا ما يفسر على سبيل المثال عدم اندفاع الولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة على منطقة سيبريا، لأن الاتحاد السوفياتى يملك القوة الكافية لصد أى عدوان من هذا القبيل. كذلك فإن الاتحاد السوفياتى من جهته لا يسعى للسيطرة على منطقة الأسكا، لأن الولايات المتحدة ستجابه هذا الأمر بكل قوة. فهاتان المنطقتان لا تشكلان فراغاً، وبالتالى لا يستطيع أحد الاقتراب منهما دون أن يتحمل عواقب ذلك. وهذا الأمر بحد ذاته يفسر أيضاً مسار الأحداث وتحديد لتجاهها فى هذا الإطار الذى يحتم أن تكون السيطرة للأقوى، سواء أكان ذلك بسبب قوته المادية أم بسبب قوته المعنوية، أو الإثنين على حدٍ سواء.

حسن يوسف الحويشي

2 ـ الضعف :

يحدث الضعف فراغاً فى تركيب البناء الذاتى للأمة سواء فى شخصيتها القومية ، أم فى باقى مجالات حياتها . لأن المستعمر عندما يشعر بهذا الضعف يندفع نحو هذه الأمة ليغرقها بمشاريعه الاستعمارية مع ما يترتب على ذلك من الارتباط بالمستعمر وترك المجال له ليستغل مواردها . ولا يكتفى بذلك بل يملأ أسواقها بمنتوجاته بغية تصريف بضاعته عن طريق توسيع السوق الاستهلاكية لدى هذه الأمة وتنمية روح الاستهلاك لدى شعوبها . ولقد عمد الاستعمار فى الماضى على إبقاء هذه الدول متخلفة فى شتى الميادين العلمية والتكنولوجية ، وعاجزة عن تأمين حاجاتها بنفسها ، ولا تستطيع أن تؤمن لنفسها ما تحتاجه من منتوجات زراعية وصناعية . حتى يصل الأمر إلى حدٍ تعجز فيه الأمة عن تأمين ما تحتاج من طعام وشراب ، فيصبح غذاؤه رهينة بيد المستعمر .

ويقوم الاستعمار بالمقابل إلى توجيه ما ينتجه فى بلاده ويبيعه للأمة الضعيفة خدمة لمصالحه وتنمية لثرواته . إضافة إلى محاولته المستمرة من خلال ذلك لربط اقتصاد هذه الدول باقتصاده . هذا من الجانب الاقتصادى والإنتاجى . أما من الناحية الاجتماعية ، فإن المستعمر يشجع على نشوء وقيام نظام طبقى يقوم على وجود فئة قليلة من أهل البلاد

المستعمـرة ، يكونـون عـادة من الإقـطاعيين والمحتكـرين يستأثرون بمعظم ثروات البلاد التى يتقاسمونها مع المستعمر ، بينما تعيش غالبية الشعب عيشة الفقر والقلة .

أما على المستوى التعليمى والتربوى ، فإن الاستعمار يهمل هذا الجانب الهام من حياة الشعوب والأجيال ويترك الجهل يخيم على الشعوب المستعمرة . كما يستطيع من خلال ذلك أن يفرض لغته وثقافته ويجعلهما بديلاً عما تملكه الأمة من تراث ولغة وثقافة .

ولقد مورست هذه السياسة بشكل فاضح فى قارة إفريقيا ، وخاصة فى الجزء الشمالى منها حيث قوى شأن اللغة الفرنسية والإيطالية على حساب اللغة العربية والثقافة العربية . ولم يكن حال الدول الآسيوية أفضل من جاراتها الإفريقية ، لأن اللغة الإنكليزية صارت هى اللغة السائدة فيها .

ولم يتوقف الاستعمار عند هذه الحدود السلبية فقط ، بل سعى إلى نشر أمراضه الاجتماعية مثل : النفاق وفقدان الثقة بالنفس والتهرب من المسؤولية والخوف والأنانية . ولا تكون للمستعمر عادة القدرة على نشر هذه الأمراض إلا بعد أن يفرغ البلاد من فكرها الاجتماعى .

أما الضعف فى القدرات العسكـرية فـإنه مـدخل آخـر للاستعمار ، حيث طبع فى ذاكرة الشعوب الضعيفة فكـرة

اللجوء إليه عسكرياً بغية الدفاع عنها ، كونها لا تستطيع الدفاع عن نفسها . ولقد حرص الاستعمار على تعميق الضعف العسكرى عند هذه الدول عن طريق إبقائها أكثر تخلفاً فى أساليبها الحربية لجعلها بحاجة دائمة لطلب مساعدة وحماية الدول الغربية فى ميدان التجهيز الدفاعى .

وهكذا نستنتج أن الضعف الذاتى يسهّل استعمار الشعوب واستعبادها وبالتالى السيطرة عليها . ولقد تجلى ذلك بوضوح فى معظم بلدان وشعوب العالم الثالث حيث يرتبط الحكّام بصورة مباشرة أو غير مباشرة بدول خارجية لحماية أنفسهم . فيقعون فى مأزق التبعية وعدم القدرة على الخروج عن سياسة الدول الاستعمارية مما يجعلهم عملاء صغار يحكمون دولاً ضعيفة وعاجزة ، وهذا ما يجعلهم يفقدون الاحترام ، ويفقدون القدرة على اتخاذ القرار فى علاقاتهم الوطنية والدولية .

3 – طلب الحماية :

ومن الحجج والذرائع التى يمنحها المستعمرون لأنفسهم كتبرير للاحتلال هى الحماية التى يطلبها الحكام العملاء أو الأجهزة العميلة حيث يقوم هؤلاء وبايعاز من المستعمرين بعملية الاستدعاء أو طلب الحماية بغرض أن يكون الاحتلال ضمن اطار الشرعية الدولية. بالاضافة الى أن بعض الحكام العملاء يسمح بوجود قواعد عسكرية استعمارية فى بلاده أما بعضهم الآخر فيرتبط

مع المستعمرين باتفاقيات ومواثيق تساعد على إطالة بقائهم فى البلاد بهدف استغلال مواردها وثرواتها وسلب شخصيتها القومية. ولا يخجل بعض عملاء الداخل من طلب حماية المستعمر بغرض خدمة أغراضه الاستراتيجية فى مناطق حساسة من العالم. ففى ليبيا مثلاً، قبل الثورة التحررية فى الفاتح من سبتمبر 1969 ، كانت القواعد الأمريكية والبريطانية جاثمة على أرضها لحماية مصالحه الاستعمارية فيها. ولكن الثورة حطمت هذه القواعد الاستعمارية بفضل تصميم وإصرار الشعب وقيادته الوطنية الجديدة. حيث لم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية ولا بريطانيا أن تقفا أمام تلك الثورة الظافرة.

وهناك كذلك قواعد عسكرية استعمارية أخرى ما زالت تقوم أمام عيون شعوب أخرى مغلوب على أمرها تنتظر ساعة الحسم لتحطيم هذه القواعد والحصول على استقلالها الوطنى وقيادة نفسها بنفسها .

وتعتبر الحربان العالميتان الأولى والثانية بداية حركة التحرر لشعوب عديدة، أهمها شعوب إفريقيا وآسيا. وأمام حركة التحرر هذه اضطر الاستعمار المتمثل بالدول الغربية إلى الرضوخ لإرادة الشعوب فى هاتين القارتين، وإلى الانسحاب بعد أن حازت هذه الدول على استقلالها بنضالها وصمود أبنائها. لكن فى بعض الأحيان كان الاستعمار يمنح الاستقلال لهذه الدول خشية من ثورة شعوبها عليه، وهو استقلال مزيف بسبب ارتباط أنظمة الحكم

العميلة باتفاقيات ومواثيق ومعاهدات ضمنت الوجود العسكرى والاقتصادى والسياسى للمستعمر الذى كان سبباً فى فشل العديد من الثورات التحررية من جهة ، أو الالتفاف عليها من جهة أخرى . كما أن هذه الأنظمة العميلة كانت تلتمس حماية الاستعمار مثلما فعل النظام الساداتى العميل عندما استنجد بالولايات المتحدة الأميركية وبطائراتها التجسسية من طراز « أواكس » أكثر من مرة، وقد بلغت فى سنة واحدة أربع مرات.

ومن الشواهد الأخرى لطلب حماية الاستعمار ما حدث فى بحر العرب وخليج عمان والخليج العربى وعلى طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ناهيك عن الأساطيل الجوالة فى بقية البحار والمحيطات .

ورغم كل الإمكانيات والتجهيزات العسكرية وتسهيلات طلب الحماية من قبل العملاء فإن قدرة المستعمرين على الاستمرار فى حماية عملائهم أصبحت ضعيفة نتيجة عجزهم وقصورهم مع تأجج روح الثورة عند الشعوب . ففى إيران ثار الشعب ضد الشاه وحكمه الذى عاث فساداً فى البلاد ولم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية من حماية نظام الشاه وحكمه أمام مدّ الثورة الشعبية التى أرغمت الشاه على الهرب ، وأدت بالتالى إلى إسقاط نظامه الفاسد ، شأنه فى ذلك شأن حليفه وصديقه أنور السادات الذى نفذ الشعب فيه

حكم الإعدام بسبب عمالته . وقد اتخذ أحرار مصر قرار إعدامه غير عابئين بالاستعمار وقواته وأساطيله وطائراته . كذلك كان حال جعفر النميرى فى السودان وهيلا سيلاسى فى أثيوبيا ، ولون نول فى كمبوديا وكاوكى فى سايغون ، وغيرهم ممن لم تستطع الولايات المتحدة الأميركية حمايتهم أو حتى إيواءهم .

4 ـ التخلخل والانفتاح :

ويحدث الفراغ أيضاً تخلخلاً فى البنى الأساسية للدول مما يجعلها قابلة للاستعمار ، ويترتب عليها بعد ذلك القيام بالانفتاح الاقتصادى والاجتماعى باتجاه دول الاستعمار . وفى هذه الحالة يكون الانفتاح نتيجة تخلخل فى منطقة بفعل الضغط المرتفع المندفع نحو مناطق الضغط المنخفض ، بحيث تفتح هذه المناطق أبوابها لاستقبال الداخل إليها مهما كان هدفه وغرضه العدوانى والاستغلالى ، وتصبح هذه البلاد مركزاً استهلاكياً للصناعات والنشاطات التجارية ، كما هو الحال بالنسبة للصناعات الأجنبية ، ورؤوس أموالها ونشاطاتها التجارية التى انتقلت إلى جميع المناطق التى تعيش التخلخل الداخلى .

ففى الصين مثلاً ، وبعد رحيل ماوتسى تونغ ، حدثت خلخلة فوقع الاندفاع نحوها وألبست لباس الانفتاح الذى عُرف فيما بعد باسم « الانفتاح الصينى » . مما أدى إلى تمييع

مواقف الصين الشعبية السياسية ، نتيجة للتبدل الخطير الذى ساهم فى دفعها نحو الولايات المتحدة الأميركية . وخير دليل على ذلك استعداء الصين للاتحاد السوفياتى مما أعطى مكسباً سياسياً استفادت منه الأمبريالية العالمية .

وحصل الأمر نفسه فى الهند حيث انتقلت إليها رؤوس الأموال الأجنبية مِمـا سهّل التبشيـر بالانفتـاح والتكنولـوجيا الغربية . كذلك الحال فى باكستان .

أما التخلخل الذى أحدثه النظام الساداتى العميل فى مصر، فإنه نتج عنه انفتاح نحو الغرب، حيث أصبح هذا الانفتاح، بعد ذلك، مبرراً للقوى الاستعمارية لفرض سياسة الأمر الواقع على المنطقة العربية. كما أصبحت هذه المنطقة تشكل منطقة ضغط منخفض فسحت المجال للدول الغربية بالاندفاع نحوهـا عبـر الصهـاينـة فى فلسـطين المحتلة، وبـالتـالى استـطاع الإسرائيليون الدخول إلى الوطن العربى عبر البوابة المصرية، التى كانت فى يوم مـا، سداً منيعـاً ودرعاً حصينـاً يخشاه الأعداء. وما زالت مصر حتى الآن فاتحة أبوابها للاستعمار كنتيجة حتمية لسياسة الانفتاح التى شملت كل مرافق الحياة. .

ثانياً : أهداف الاستعمار :

عملية الاستقراء التاريخية للدور الذى لعبه الاستعمار على

مدى القرون الماضية تكشف بوضوح صعوبة وجود دعوة لا يخالف ظاهرها باطنها . وهذا ينطبق كلياً على دور الاستعمار والحكومات الواقعة فى تبعيته . فهذه الحكومات تحاول جاهدة عن طريق الدعايات والافتراءات إيهام أهل البلاد الذين تحكمهم أن الدول الغربية حريصة على رفع مستواهم لترتفع بهم إلى مراحل متقدمة من التطور الإنسانى . فى حين يكون عمل الاستعمار الفعلى هو إنزال الشعوب إلى أحط وأقل درك فى الإنسانية . فعلى مقدار ما تظفر به حكومات الاستعمار من خير لذاتها يكون بالمقابل إنزال أقصى درجات الشر بالشعوب المستعمرة بهدف تمكن الفساد منها حتى يصيب سلباً كل مرافق حياتها العامة . بما فى ذلك تفشى الأمراض فى أهلها ، ومعاناتهم الجوع الذى يؤدى إلى الهلاك .

من هنا نلاحظ بوضوح تعدد أغراض الاستعمار التى تستهدف القيم الأساسية التى تشكل دعائم البنية الأخلاقية فى المجتمع . كما يتوجب علينا أن نتفهم كيف أن غرض الاستعمار هو ضرب الأنماط الاجتماعية المحلية والنيل من المرتكزات الشعبية الأساسية ، كضرب روح الوحدة التى تنعم بها هذه الشعوب والتى تمنحها القوة . كذلك استهداف عقائد الشعوب ودياناتهم التى يستلهم الناس منها عادة قوتهم المعنوية والروحية . إضافة إلى سعى المستعمر إلى استثمار خيرات الشعوب وثرواتهم الطبيعية وسنحاول الآن توضيح هذه الأهداف الاستعمارية بشىء من التفصيل :

1 - ضرب الوحدة :

عندما تسعى كل أمة من الأمم إلى إقامة وحدتها بهدف خدمة ذاتها، والحفاظ على نفسها ضمن كيان خاص بها ومميّز يبرز شخصيتها ويقوى وحدتها الوطنية، فإنها تكون قد وضعت الأساس الفعلى وأقامت السد المنيع أمام مخططات الاستعمار، وقطعت الطريق على المستعمر الذى يستهدف احتلالها واستغلالها.

ومن هنا نجد أن الاستعمار يلعب دوراً كبيراً فى تجزئة الأمم من خلال اعتماده شعار « فرق تسد » . لأن تجزئة وتقسيم الأمة الواحدة إلى جماعات متناحرة ومتخاصمة يسهّل عليه عملية ضربها وبالتالى السيطرة عليها .

وانطلاقاً من ذلك ، وعلى صعيد الوطن العربى بشكل خاص ، نلاحظ أن عدم تحقيق الوحدة العربية ، تعنى بالنسبة إلى المستعمرين الغربيين ، سهولة فى السيطرة على المناطق الاستراتيجية فى الوطن العربى. وهذه المناطق الاستراتيجية البالغة الأهمية هى:

- باب المندب على مدخل البحر الأحمر .
- جبل طارق على مدخل البحر الأبيض المتوسط .
- مضيق هرمز عند مدخل الخليج العربى .

وعند ذلك يتمكن الاستعمار، من خلال نجاحه فى الاستيلاء على هذه المراكز الحيوية من اجتياح المنطقة بأسرها واستعمارها ثم التقدم من خلال هذه المراكز إلى مناطق أخرى تسهل عليه عملية محاصرة الاتحاد السوفياتى، ونقل القواعد العسكرية إلى حدوده. إضافة إلى ما ينجم عن هذا التغلغل والتوسع من استفادة فى مصادرة واستغلال المواد الخام، وخاصة النفط. ثم السيطرة على طرق المواصلات.

من جهة أخرى يريد الاستعمار أن يجعل العرب كالهنود الحمر أو الغجر أو الأكراد، فهؤلاء كلهم أقوام عروقهم مختلفة ولكن لهم أرضهم التى وجدوا عليها. فالهنود الحمر هم السكان الحقيقيون للولايات المتحدة الأمريكية ولكن المهاجرين الاوروبيين الذين جاءوا أو تجمعوا من مختلف أقطار العالم وأوروبا بالذات، قد استحوذوا على الأراضى الأمريكية وتمكنوا من طرد السكان الحقيقيين والسيطرة على مقاليد الأمور فيها حيث قامت الولايات المتحدة الأمريكية من مختلف الأجناس. وكذلك الحال بالنسبة للغجر الموجودين الآن فى جميع أقطار العالم فان موطنهم الأصلى فى الشرق الأدنى. أما الأكراد فان لهم وطنهم ولكن أصبحوا أمة مشتتة ومقسمة ومقطعة الأوصال وكل ذلك بسبب السياسة الاستعمارية التى لا تريد لأية أمة أن تنهض وتتوحد.

وهكذا أصبح العرب مثل الأكراد أو الغجر أو الهنود الحمر، وهذا ما نلاحظه من خلال الهجومات المتكررة على الوطن العربى

سواء أكانت هجومات داخلية كالذى يفعله الاسرائيليون الصهاينة فى فلسطين وما حولها، أو خارجية كالتى يقوم بها عناصر معادية للأمة العربية من خارج الوطن العربى المتاخمة لحدوده، وهى فى جملتها حملات عنصرية يغذيها المستعمرون من أجل تحويل الأمة العربية الى هنود حمر غرباء فى وطنهم أو غجر مشتتين فى كل قارات العالم أو أكراد تتجاذبهم دول شتى تتحكم فيهم.

ان الاستعمار بالاضافة الى نجاحه فى منع تحقيق الوحدة العربية فان محاولاته مستمرة أيضاً فى التأثير على القومية العربية باعتبارها الأساس فى بناء المجتمع العربى الواحد. فقد لجأ بشتى الوسائل إلى تجزئة الوطن العربى أولاً إلى دويلات ورسم حدوداً لكل دولة، ثم سلط على كل واحدة منها حاكماً أو ملكاً أو رئيساً أو أميراً أو سلطاناً وكل واحد من هؤلاء يعبر عن الذاتية المحلية الاقليمية من منظاره التعصبى الضيق الحدود والافق.

ولعل أبرز ظاهرة استعمارية فى هذا الاطار ما نسمعه من دعوات لا قومية تطلقها الشعوبية بدعم من الاستعمار العالمى الذى يدعم ويتبنى القومية الاسلامية ومن هذه الدعوات ما تقوم به الأحزاب المتسترة بالدين كحزب التحرير والاخوان المسلمين والدعوة وذلك بغرض مسخ الهوية العربية باسم الدين وابراز قوميات اخرى يستعديها الاستعمار على الأمة العربية.

ولم يقتصر غرض المستعمرين على استهداف الأمة الواحدة،

بل تعداه الى استهداف الشعب الواحد انطلاقا من القاعدة الذهبية بالنسبة له وهى قاعدة: «فرق تسد»، فعمد إلى إثارة النعرات المذهبية والطائفية والعرقية، كما حدث فى لبنان: حيث نجد الدروز فى تكتل خاص بهم، وكذلك الشيعة الذين ينضوون فى جماعة منعزلة، وكذلك الأمر بالنسبة للسنة. والأمر نفسه ينطبق على المسيحيين.

أما فى المغرب العربى فقد خطط الاستعمار لإضعاف الوحدة بين أهله عن طريق نعت أبناء المغرب بصفات تجعلهم يستعدون بعضهم بعضاً. ونشير هنا إلى أن فرنسا قد لعبت دوراً كبيراً فى هذا الخصوص بصفتها البلد المستعمر. وأشد أساليبها استعمارية برزت فى الجزائر. أما فى ليبيا فقد كان الإيطاليون هم الذين حاولوا إضعاف المقاومة الليبية عن طريق تبنى مجموعة عميلة لضرب المقاومة الوطنية الليبية من الداخل.

ولم يقتصر الاستعمار على هذا المنحى فى ضرب وتجزئة الشعب الواحد، بل عمد إلى زرع مقاييس أخرى للتفرقة كما حدث فى إفريقيا. فبعد أن قسم المستعمرون القارة إلى دويلات، ونصّبوا فيها حكاماً عملاء، قطعوا الصلة بين العرب والأفارقة فى محاولة منهم لجعل الصحراء فاصلاً بين شمال القارة وأجزائها الجنوبية. والهدف لم يكن جغرافياً وعلمياً، بل كان هدفاً سياسياً ليشتتوا القارة حتى يسهل عليهم تنفيذ أغراضهم وأهدافهم الاستعمارية. ولكي يستطيع المستعمر أن يحقق لنفسه مكاسب سياسية واقتصادية

فإنه يحاول باستمرار وبدون كلل أو ملل إجهاض كل محاولة تهدف إلى توحيد أية أمة أو تقريب أبنائها بعضهم من بعض، حيث إنه فى ظل الوحدة لا يستطيع أن يتحقق أي مكسب يُذكر.

ولم تكن القارة الآسيوية بأفضل حال من شقيقتها القارة الإفريقية ، حيث عمد الاستعمار إلى تجزئة المنطقة الهندية إلى دول ثلاث هى : باكستان ـ الهند ـ بنغلادش ، بعد أن كانت هذه البقعة من آسيا دولة واحدة . ثم استغل الاستعمار الخلافات بين الأحزاب والطوائف لبسط سيطرته كما حصل فى سريلانكا بين التاميل والسنهاليين . وهذا العمل الاستعمارى لم يقتصر على المستعمرين الأوربيين الغربيين ، بل تُـوِّج بتدخل الولايات المتحدة الأمريكية كدولة استعمارية كبرى تريد أن تفرض وجودها بالقوة على كل بقاع الأرض .

2 ـ تشويه الدين :

حاول الاستعمار أن يتخذ من الدين قناعاً يتستر به ، فأوجد مفهوماً للدين يختلف عن فهم الناس لتعاليم دينهم. ولم يكن الاستعمار هاملاً للعامل الدينى ، لأنه يدرك ويعرف مقدار تعلق الأمم بالدين ومدى تمسكها به . ذلك أن الدين عقيدة واحدة ، ويشكل بالتالى أحد العوامل ، بل الأساس فى مقاومة الاستعمار . من هنا عمد الاستعمار إلى تشويه أديان جميع الشعوب التى استعمرها . وذلك بصورة وقحة متدخلاً فى

عقائد الشعوب محرفاً لها ومزوراً لحقائقها الدينية والتاريخية . وغرض الاستعمار من ذلك إفساد الدين ودفع أتباعه وأهله إلى التخلى عنه .

وعلى صعيد الدين الإسلامى ، جاء المستعمرون بأناس أغروهم بالمال والوظائف طالبين منهم أن يؤلفوا كتباً ويضعوا تفسيرات واجتهادات تكرس وجود المذاهب فى الإسلام حتى تسهل لهم عملية تفريق الناس إلى شيع وأحزاب ، وترسيخاً للفتنة فيما بينهم . ومن هنا كان سعيهم ومحاولتهم للقضاء على روح الإسلام ومعانيه الإنسانية السامية .

أما فيما يخص الشعوب التى اعتنقت الديانة المسيحية ، فقد استغل الاستعمار الطائفية ، لا سيما الاتجاهات المتعصبة منها ، التى انضوت بعد ذلك تحت توجيه وإشراف الحركة الصليبية ذات الأهداف السياسية. . حيث زجت بالعالم المسيحى فى صراعات وحروب مدمرة على شكل حملات عسكرية استهدفت العرب المسلمين. وتعتبر هذه الحملات امتداداً للحركة الصليبية التى قام بها الرومان فى العصور القديمة.

ويلاحظ هنا أن هذه الحملات استخدمت أساليب مختلفة وأنواعاً متعددة من أشكال الصراع فى المناطق التى مارست فيها نشاطها. ففى إفريقيا دخل المستعمرون القارة تحت شعار

التبشير بالدين المسيحى، فى حين أنهم كانوا يعملون فى الواقع على دفع الأفارقة للتعصب، وفى نفس الوقت يعملون على محاولة دفع المسلمين لاعتناق المسيحية .

أما فى الوطن العربى فإن هذه الأهداف ظهرت بشكل واضح عندما وقف أحد قادة الإنكليز العسكريين على قبر صلاح الدين الأيوبى فى دمشق بسوريا يقول : « ها قد عدنا يا صلاح الدين ». ويقصد بذلك أنه ينتمى إلى ذات الحملات الصليبية القديمة التى هزمها صلاح الدين شر هزيمة .

وعندما غزا المستعمرون تونس تظاهروا فى شوارع العاصمة حاملين لافتات كتبوا عليها عبارات استفزازية مرتدين ملابس رُسمت عليها الصلبان باللون الأحمر لإحياء ذكرى مقتل (سان لويس) ، دون الاكتراث بمشاعر الأهالى والسكان المحليين . بل إنهم لم يتورعوا عن التفاخر بالاستعمار الصليبى .

وعندما نقول بأن التاريخ يعيد نفسه فإننا نقصد بذلك أنه ، فى العصر الحديث ، أخذت الولايات المتحدة الأميركية تمارس الدور نفسه فى حركتها الاستعمارية الجديدة ، من خلال أساطيلها البحرية التى تمثل الهجمة الصليبية العاشرة ولكن بشكل عصرى جديد . كل ذلك بحجة حماية مصالحها ومصالح حلفائها الاقتصادية فى العالم . فتكون بذلك مسؤولة عن قيادة حملة صليبية تحتل الرقم العاشر فى الحملات الاستعمارية المعادية للبشرية عموماً وللوطن العربى وإفريقيا

خصوصاً . سيما وأنها تساند وتدعم فى محيطنا الحركة الصهيونية العالمية التى اتخذت من أرض فلسطين المحتلة مركزاً لتغذية نشاطها الاحتلالى الاستعمارى فى العالم .

بل نستنتج من ذلك بأن هناك ترابطاً وثيقاً بينهما يتمثّل فى التحالف على أساس المصالح المشتركة والمنهجية الواحدة ضد المناوئين لهم.

ولعل خير دليل على ذلك التحالف الذى حصل بين الحركة الصهيونية، والحركة الصليبية بزعامة الولايات المتحدة الأميركية عندما تمكنت قوات المارينز التابعة للبحرية الأميركية من اجتياح لبنان. فبعد أن خرجوا منها بفعل المقاومة الوطنية اللبنانية منهزمين أعقبهم الإسرائيليون فى اجتياح لبنان ثانية وقاموا باحتلال بيروت أول عاصمة عربية بعد فلسطين، ولكن الاحتلال لم يدم سوى أيام قليلة بفضل مقاومة الشعب العربى فى لبنان وبفضل إيمانه بأرضه ووحدته . مما أرغم الغزاة على الانسحاب والتقهقر . وهو ما دفع التحالف الأمريكى ـ الصهيونى إلى الالتفاف مرة أخرى على الوطن العربى مستهدفاً هذه المرة ليبيا ، حيث قامت الطائرات الحربية التابعة للأسطول الأمريكى بضرب الجماهيرية الليبية مستهدفة بذلك قيادتها وشعبها . لكن بفضل الوطنيين الذين كشفوا أهداف الحملة الاستعمارية المسعورة وخططها العدوانية فإن عمليتهم باءت بالفشل . الأمر الذى دفعهم إلى الانكفاء والاتجاه نحو

الخليج العربى حيث ملأوا مياهـه بالأسـاطيل والمـدمّرات وكـاسحـات الألغـام المتعـددة الجنسيـات ، ذات الهـدف الاستعمارى الواحد . وهكذا استمـرت محاولات التـطويع والإذلال وتدنيس المقدسات تحت شعار أساطيل جوالة لحماية المصالح ، ولكن فى حقيقتها ما هى إلا استمرار للحملات الصليبية .

3 ـ الاستغلال:

عمدت الدول الاستعمارية خلال عصور الاستعمار المتعاقبة إلى استثمـار رؤوس الأموال وإنشـاء المصانـع واستغـلال الأراضى فى المنـاطق التى استعمرتهـا وأحكمت السيـطرة عليها . وكان الدافع فى ذلك مبنياً على نظرية الاستعمار التى تهـدف إلى ملء الفـراغ الحاصـل أو الواقـع فى المناطق المستعمرة بسبب إهمال أهلها لها وعدم استغلالهـا ، مما حرمهم من حق التمتع بها . فكان للمستعمر فرصة التنقيب عن المعادن الثمينة والمواد الخام الموجودة فى باطن الأرض ، فاستطاع اكتشاف النفط والذهب والأورانيوم وغير ذلك من المعادن الثمينة ، التى تشكل عنصراً أساسياً لا غنى عنه فى البنية الاقتصادية للصناعة الغربية ، والتى على أساسها يتحدد موقع اقتصاد الدول ومقدار قوة هذا الاقتصاد . أما التبرير الذى قدّموه فى احتكارهم لعملية الاستثمار الاستغلالية فهو ادعاءهم

بأنهم يتمكنون من استغلال هذه الموارد على أفضل وجه فى حين أن الشعوب المحلية المغلوبة على أمرها غير قادرة على استثمار ثرواتها بنفسها .

وفى المجال العملى ، تمكنت الشركات الأجنبية فى القارة الأفريقية من استغلال المعادن الثمينة واستثمار الأراضى الخصبة مما أفاد الدول الاستعمارية بثروات هائلة . كما عمد المستعمر إلى نقل هذه المواد والمعادن إلى بلاده لتصنيعها وتوضيبها فى معامله ومصانعه حتى يصار إلى تصديرها من جديد إلى الشعوب المستعمرة على شكل سلع استهلاكية . وبدافع تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح عمدت الدول المصنعة إلى إنشاء مجمعات صناعية فى الدول المستعمرة نظراً لرخص اليد العاملة ولاختصار عملية المواصلات وكلفتها ، وكلفة نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك . ونتيجة لذلك تم تحويل الأصحاب الحقيقيين لهذه الثروات من أرباب عمل إلى عمال . وهكذا حوّل الاستعمار الأفارقة إلى أجراء غير قادرين على تأمين قوتهم اليومى . بالرغم من أن عملهم لا تقدر قيمته إذا ما قورن بقيمة الإنتاج .

أما فى الوطن العربى ، فإن النفط هو هدف المستعمرين ، حيث قامت الشركات الأجنبية باحتكاره وتحويل كل الثروات النفطية إلى الدول الغربية . أما الدول التى تفتقر إلى النفط فلجأت الدول الاستعمارية إلى استغلال واستثمار ثرواتها

الزراعية . كما فعلت إيطاليا فى غفلة من الزمن أثناء استعمارها لليبيا . ولا بد أن نذكر أن إيطاليا استثمرت فى حينها :

400000 شجرة زيتون .
250000 شجرة من الحمضيات .
184000 شجرة لوز وكرمة .
52000 شجرة مختلفة النوع .

هذا بالإضافة إلى قيام المحتلين الإيطاليين بتوزيع المزارع على عائلات إيطالية تحتوى على وحدات سكنية، ووفروا لهم جميع المستلزمات الزراعية مما ساعد المزارعين الإيطاليين وشجعهم على الهجرة إلى الأراضى الليبية لاستثمارها وإحكام السيطرة عليها واستغلالها توظيفاً لمصالحهم الاقتصادية .

وكان ذلك كله على حساب أصحاب الأرض الحقيقيين الذين حرموا بالقوة من حقهم فى استغلالها وتوفير قوتهم منها .

وعلى الرغم من هذا الوضع المأساوى فإن نتيجة هذه التصرفات الاستعمارية جعلت الشعوب المغلوبة تتمسك بأرضها، كما أصبحت حافزاً لهم على مقاومة المستعمرين واسترداد ما أُخذ منهم بالقوة .

الفصل الثانى

أشكال الاستعـــمــار وأساليبـــه

أولاً ـ السيطرة من خلال تدمير الشخصية الوطنية

ثانيــاً ـ اشــكال السيطــرة الاقتصــادية والاجتماعية والسياسية والثقافيــة

ثالثــاً ـ السيطرة من خلال ترسيم الحدود الجغرافية

أشكال الاستعمار وأساليبه

استخدم الاستعمار الكثير من الأساليب المباشرة وغير المباشرة من أجل إحكام سيطرته على شعوب العالم . وتنوعت هذه الأساليب ، خاصة بعدما بدأت الشعوب المستعمرة تنهض من سباتها وتناضل من أجل قوميتها واستقلالها السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

لقد استخدم الاستعمار شتى الوسائل للقضاء على حركة التحرر العالمية، حيث أخذت الجماهير الشعبية فى إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تناضل ضد المحاولات الاستعمارية المستمرة والتى ترمى إلى استعباد هذه الجماهير وسلب خيراتها . ومنذ مطلع القرن العشرين بدأت حركات التحرر فى العالم تسطر صفحات ساطعة من البطولة

فى مقاومة الاستعمار بأشكاله القديمة والحديثة . وقد لجأ الاستعمار فى البداية إلى استعمال القوة المباشرة . وحاول إبادة شعوب بكاملها ، كما حصل للهنود الحمر فى القارة الأمريكية . وعندما أصبحت القوة العسكرية غير كافية لتحقيق مآربه فى إخضاع الشعوب ، خاصة بعد أن ازداد وعى الشعوب فى البلدان المستعمرة ، وبعد أن تكثف نضالها الدؤوب ، لجأ الاستعمار إلى الأساليب غير المباشرة مستخدماً جميع إمكانياته العلمية والدعائية والنفسية - (السيكولوجية) ، وذلك من أجل إحكام سيطرته وتأمين استمرارها واستمرار مصالحه . غير أن اللجوء إلى هذه الأساليب غير المباشرة لم ينفِ نهائياً اللجوء إلى القوة العسكرية ، بل على العكس من ذلك ، فحين لا تنجح أساليبه غير المباشرة من دعائية ونفسية ، فإنه يلجأ إلى استخدام القوة العسكرية ، لأنها تشكل العصا التى يهدد بها الشعوب .

وكانت تتقاسم العالم ، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، عدّة قوى استعمارية أبرزها بريطانيا ، وفرنسا ، إلى جانب دول أخرى أقل أهمية كالبرتغال وإيطاليا وألمانيا . إلا أن نتائج الحرب العالمية الثانية ، أدت إلى التوسع فى سياسة الأحلاف وأصبح العالم منقسماً إلى معسكرين، الأول الاتحاد السوفياتى ودول شرق أوروبا، والثانى الولايات المتحدة الأميركية ودول غرب أوروبا. إلا أن الولايات المتحدة الأميركية أرادت أن

تحتل مواقع الدول الاستعمارية السابقة فجاءت بأساليب جديدة تمثلت بنظرية « ملء الفراغ » التى صاغها الرئيس الأمريكى ايزنهاور آنذاك. وترتكز هذه النظرية الاستعمارية على قاعدة أساسية فى الاستعمار الحديث وهى : أنه يجب على الولايات المتحدة أن تحل محل النفوذين الفرنسى والبريطانى ، وإلا فإن الشيوعية سوف تسيطر على العالم .

وقد ترجمت هذه النظرية فى إقامة حلف بغداد وحلف الحزام الآسيوى غير أن القوى التقدمية والتحررية تصدت لهذه المشاريع والأحلاف وتمكنت من إفشالها .

وكان من أكبر المتصدين لهذه المشاريع والأحلاف الرئيس العربى الراحل جمال عبد الناصر . ونتج عن ذلك حرب 1956 ، التى كانت مبرراتها الاستعمارية حماية قناة السويس ، غير أن غايتها الأساسية كانت محاولة القضاء على الثورة الناصرية وما تمثله تلك الثورة فى التحريض على كشف وتعرية أساليب المستعمرين وذلك على الصعيد العالمى والوطن العربى بشكل خاص.

أما الأبواق الاستعمارية فقد حاولت أن تقنع العالم بوجود فراغ فى المناطق المراد استعمارها، وأرفقتها بدق ناقوس الخطر، مثيرة الهلع والخوف مدعية بأنه إذا لم تقم الدول الغربية بملء الفراغ فإن الاتحاد السوفييتى سوف يقوم بهذه المهمة وعند ذلك تنتشر الشيوعية .

وهكذا روجت الأبواق الاستعمارية عندما وجدت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤ ها مجالها الحيوى فى منطقة الخليج العربى ومناطق المحيط الهنـدى والمحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط، حيث ادعت بأن هناك فراغاً عسكرياً فى هذه المناطق ولا بد من ملئه.

ونظرية ملء الفراغ ليست جديدة ، فهى مقولة استعمارية قديمة . انتهجتها سابقاً الدول الغربية آلتى دخلت إفريقيا . حيث اعتبر الإيطاليون فى القرن التاسع عشر أن ليبيا تشكل الشاطىء الرابع لإيطاليا . وطالما أن ليبيا لا تضم الكثير من السكان ، فمن حق.إيطاليا الطبيعى أن تحتل أراض ليست لها لتملأ الفراغ !.

كما أن فرنسا احتلت تونس والجزائر والمغـرب وأجزاء أخرى من إفريقيا بعد أن لجأت إلى نفس المبررات والذرائع .

وهكذا لم يترك المستعمـرون أى أسلوب أو وسيلة إلا واستعملوها من أجل تبرير سيطرتهم واستعبادهم للشعوب . وهذه الأساليب على درجة كبيرة من الخطورة . وليس أدل على ذلك من استمرار الهيمنة والسيطرة على شعوب العالم الثالث من جانب الاستعمار ، بالرغم من حصول معظم دول العالم المعاصر على استقلالها السياسى .

أما الأساليب التى اتبعها المستعمرون للسيطرة على هذه الشعوب فقد تمثلت فى :

- تدمير الشخصية الوطنية .
- فرض التبعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية .
- ترسيم الحدود الجغرافية ـ السياسية .

وسوف نتكلم عن كل أسلوب من هذه الأساليب فى فقرة مستقلة على النحو التالى :

أولاً : السيطرة من خلال تدمير الشخصية الوطنية :

منذ أن وطأت أقدام المستعمر أراضى آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية ، أخذ يستعمل جميع الوسائل والسبل من أجل تدمير الشخصية الوطنية لتلك الشعوب عن طريق تقديم حضارة كأنها نموذج للحضارة المتفوقة على سائر الحضارات فى العالم . ولم يكتف بتقديمها وعرضها ، بل إنه فرضها فرضاً ، مما أدى إلى عملية اغتراب نفسى واجتماعى وسياسى لكل الشعوب .

فعندما دخل المستعمر إلى العالم الثالث ، كان يحمل معه اعتقادين عنصريين أساسيين : يتعلق الأول بتفوق الحضارة الغربية التى ينقلها إلى الشعوب التى هى بنظره متخلفة ومتوحشة وهى شعوب إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية . وهو يرى

بأن حضارته الغربية هى أفضل حضارة فى التاريخ والعالم . والثاني أنه مهما تقدم الإنسان فى البلدان المتخلفة فإنه سيبقى إنساناً دونياً يلحق بالغرب ، لأنه لا يستطيع أن يتخلص من كل نقائصه .

وانطلاقاً من هذه الأسس التى تشكل الرؤ ية الاستعمارية ، بدأت عملية غسل دماغ واسعة لشعوب العالم الثالث . وبُذلت جهود كبيرة من أجل إقناعهم بأن عليهم تقليد المستعمر . كالذى حدث عندما دخل الاستعمار الفرنسى إفريقيا حيث كان المدرسون الفرنسيون ينتقدون أجداد الطلاب الأفارقة ويقولون عنهم بأنهم كانوا متوحشين. وفى نفس الوقت كانوا يضربون المثل الأعلى بأجدادهم الفرنسيين ويعتبرون مجيئهم إلى إفريقيا إنقاذاً لهم مما هم عليه من وحشية وتخلف خلفها لهم الأجداد. وهكذا وبصورة تدريجية أخذوا يدمرون الشخصية الوطنية لهذه الشعوب ويفقدونها الثقة فى نفسها وفى تأريخها وفلسفاتها.

وكنتيجة لهذا التدمير الاستعمارى قامت ثورات فى بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية تمثلت فى المطالبة بالاستقلال وتأكيد ذاتها القومية التى حاول الاستعمار طمسها بشتى الوسائل.

لكن هذا الاستقلال لم يستطع أن يقضى على عملية الاغتراب والتمزق والضياع فى بلدان العالم الثالث . حيث

استمر الاستعمار وبشكل شرس فى محاولة تدمير الشخصية الوطنية والقومية ، تارة عن طريق الجامعات وتارة أخرى عن طريق المؤسسات والنظم الإدارية . وكذلك عن طريق دفع جميع شعوب العالم إلى تقليد أساليب الاستهلاك الغربية وتبنى قيمه وأخلاقياته ، بغض النظر عن علاقة هذه القيم بحقيقة المجتمعات وحضاراتها وقيمها .

وفى الوقت الحاضر تجرى الضغوطات المباشرة وغير المباشرة من جانب الدول الاستعمارية للوصول إلى هذه الغايات بواسطة وسائل الإعلام . حيث استطاعت أن تحول الإعلام إلى شكل من أشكال السيطرة . فالإعلام لا يهدف إلى نقل الأخبار والأنباء فقط ، بل يبث الأخبار على النحو الذى يريد أن يمليها من خلال توجيهاته . ولهذا نجد بأنه ليس لوكالات الأنباء الوطنية ، فى أغلب الأحيان ، أى دور إعلامى . بل إن السيطرة الإعلامية فى العالم كله تتم عن طريق الوكالات الخمس التالية : أسوشيتد برس ، يونايتد برس ، فرانس برس ، رويتر ، تاس .. حيث تقوم هذه الوكالات بتغذية الوكالات الوطنية ، وتوزع عليهم الأخبار والمعلومات وتصيغها بشكل يخدم مصالح القائمين عليها . وبطبيعة الحال فإنه عن طريق هذه الوكالات أيضاً تتكون القناعات والمعايير لدى غالبية الناس : الحق ـ الخطأ ، الجيد ـ الردىء . كما أن غالبية سكان العالم الثالث ، ونتيجة

لعدم تنبههم ووعيهم لهذه الأمور ، يسهّلون عملية الإعلام الأجنبى التى تقوم بها الوكالات العالمية .

غير أن الاستعمار ، فى سبيل تدمير شخصيتنا ، لم يكتف بالوسائل الإعلامية بل لجأ إلى صياغة عدد من النظريات الشوفينية والعرقية ، ليبرر تفوقه على بقية الشعوب .

ومن هذه النظريات الاستعمارية العرقية نظرية تدّعى أن الشعوب البيضاء ، وحدها من بين كافة الشعوب فى العالم أجمع ، تستطيع أن تتقدم وتستمر بالتطور ، نظراً لخصائص الجنس الأبيض الذى يصف نفسه بصفات خاصة مثل المهارة والمثابرة والنشاط . فى حين يصف غيره من سائر الأجناس والشعوب بصفات الكسل والخمول .

ولكن هذا الوصف لا يقدر على الصمود أمام أى نقد علمى مجرد . فلا يمكن أن نصف شعباً بأكمله بالنشاط أو الكسل . فهذا الأمر يتعلق بالشخص المفرد وبظروفه الحياتية والذاتية ، ونوع غذائه وكفايته . وبمعنى آخر ليس للّون أو العرق أية علاقة بالنشاط والكسل . فبمجرد أن نتفحص فى الأمر نجد أن النبوغ والتفوق موجود لدى كل الشعوب من كل الألوان والأعراق .

كذلك نجد أن « حضارة الرجل الأبيض » أو « الإنسان الأوروبى »، لا تعود إلى أكثر من قرنين من الزمن . فى حين

أن الحضارات الإفريقية والعربية والصينية والهندية (نسبة إلى الهنود الحمر) سبقت الحضارة الغربية بقرون عديدة وقدمت للإنسانية وما زالت تقدم الإنجازات الإنسانية والثقافية .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الكثير من الشعوب البيضاء فى حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وبعض بلدان أوروبا ، وقسم من شعوب أميركا الجنوبية ، وإن عرفت فى الماضى تطوراً مادياً وفكرياً رائعاً ، إلا أنها تشكّل اليوم جزءاً من البلدان التى يسيطر عليها الاستعمار .

ومن النظريات الأخرى التى حاول فلاسفة الفكر الاستعمارى صوغها وتسويقها ، نظرية تقول إن البلدان الأوروبية فقط يمكن أن تتقدم لأنها تقع فى المناطق المعتدلة مناخياً من العالم ، لأن المناخ منشط للجسم والعقل ، إذ إن فصل الشتاء الطويل يجدد وينشط الطاقات البشرية ويحفزها . فى حين أن المناخ الحار والأمراض التى تساعد على انتشارها الحرارة والرطوبة تحدّ من قدرة الإنسان الإنتاجية لما لها من تأثير على الذهن والجسد .

ويثبت التاريخ من ناحيته زيف هذه الادعاءات الفارغة من كل مضمون علمى . وليس أصدق من حكم التاريخ فى مثل هذه المسائل ، فالتاريخ يملك الأجوبة على كل الادعاءات الكاذبة . . حيث أن العوامل المناخية قد تؤثر فى عملية

الخلق والإبداع ، إلا أن بلداناً كثيرة عرفت فى الماضى حضارات ساطعة ، وبلغت فى ميادين متعدّدة ، مستويات لم تبلغها الدول الاستعمارية إلا منذ وقت قريب جداً .

تلك الأساليب والنظريات استعملها الاستعمار فى محاولته تدمير الشخصية القومية والوطنية للشعوب المستعمرة .

ولم يقف عند هذا الحدّ بل لجأ إلى أسلوب أبشع وأخطر . فقد حاول أن يدمّر الأديان التى تعتنقها تلك الشعوب مدّعياً أن هذه الأديان هى المسؤولة أولاً وأخيراً عن تخلف تلك الشعوب وانحطاطها

لكن هل من الممكن أن تكون الأديان هى السبب فى وضعية التخلف التى تعيشها البلدان المستعمرة ، أو ليس الصحيح القول بأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تعيشها بعض الشعوب وبناءً على وضعيات وضغوط معينة ، أدت جميعها إلى فرض تفسيرات للذين يقولون بأن البلدان الأكثر تقدماً هى البلدان المسيحية .

وينبغى أن نعيد الأمر إلى نصابه ، فنعود إلى أسباب ظهور هذا التصور حول الأديان والتمييز فيما بينها . فقد ظهر هذا التصور فى الأساس لمحاربة الدين الإسلامى ، ومن أجل إحكام السيطرة الاستعمارية على الشعوب التى تنتمى وتدين بالدين الإسلامى . ومع ذلك ليس لنا إلا العودة إلى التاريخ

وإلى أدلته لدحض هذا التصور ، هذا من ناحية . أما من ناحية أخرى فنجد بأن الردّ على ذلك قد جاء من بعض المفكرين الأوروبيين أنفسهم. ونذكر من بين هؤلاء المفكرين الباحث إيف لاكوست الذى كتب يقول :

« إن الإسلام فى عصره الأول وحتى القرن الحادى عشر ، أوج الحضارة الإسلامية وانطلاقها ، قد برز كدين يدعو للتقدم والخلق والإبداع ، سواء من الناحية الفكرية أو من الناحية الاقتصادية . وعلى العكس من ذلك ، فإن الناس ، قد أعطوا الدين تأويلاً قدرياً عندما دخل العالم الإسلامى مرحلة جمود وانحطاط » .

لذلك ، وباعتراف الكثير من المفكرين الأوروبيين ، يُعتبر الدين الإسلامى دين خلق وإبداع على جميع الصعد . ويمكننا أن نذكر قائمة بأسماء المفكرين والباحثين الأوروبيين الذين أبدوا إعجابهم بالإسلام كدين وحضارة ، ومنهم موريس لومبار وروجيه غارودى الذى وصل إلى حد اعتناق الدين الإسلامى .

ولكن الصحيح فى هذا السياق القول بأن بعض الأنظمة الرجعية فى الماضى والحاضر ، وللمحافظة على عروشها ، حاولت أن تستخدم الدين لأغراضها وتحرفه عن مضمونه الحقيقى ، فحرفت الدين عن طريقه الصحيح ، وذلك عن

طريق إعطاء تفسيرات لا تمت إلى تعاليمه بصلة حقيقية لا من قريب ولا من بعيد ، ولا تتفق هذه التفسيرات مع جوهر رسالته .

إلى جانب ذلك ، لو عدنا تاريخياً إلى الوراء قليلاً واستعرضنا دور الدين المسيحي فى أوروبا ، لوجدنا أن هذا الدين لم يكن بالضرورة ديناً يدفع الناس ويحضهم على الإبداع والعمل والتقدم . بل على العكس من ذلك تماماً ، فعندما بدأت النهضة العلمية والثورة الفكرية فى أوروبا كانت موجهة أساساً ضد الكنيسة التى وقفت عائقاً أمام رجال الفكر فاضطهدتهم وأحرقت بعضهم وحاكمت بعضهم الآخر . فى حين أن الدين الإسلامى فى ذلك الزمن كان الدين الذى يقف وراء الإبداع والنمو والازدهار . وما الحضارة العربية الإسلامية الساطعة إلا نتيجة للدور الإيجابى البناء للدين الإسلامى . بل يمكن القول أكثر من ذلك ، فالحضارة الأوروبية ذاتها إنما تأسست على علوم العرب ، فمن خلال تسرب العلم والفكر العربيين الإسلاميين عن طريق الأندلس إلى عواصم أوروبا ، بدأ الأوروبيون يتعلمون أسس التفكير وأسس العلم والرياضيات والكيمياء . وهذا الأمر أصبح ثابتاً من الوجهة التاريخية ولا ينكره إلا المستعمرون العنصريون .

وهكذا يظهر بوضوح أن النظرية التى تدّعى بأن الدين المسيحى هو الدين الوحيد الذى يدعو إلى التقدم والازدهار ،

ما هى إلا نظرية عنصرية متعصّبة . الغاية الأساسية منها دسّ الشك بين الشعوب وبين معتقداتها وقيمها لتسهيل السيطرة عليها . خاصة أن الدين الإسلامى على وجه الخصوص لعب دوراً كبيراً ، وما زال فى حفظ الشخصية القومية والوطنية لكل الشعوب .

وإلى جانب التشكيك فى الدين الإسلامى حاول المستعمرون صياغة نظرية أخرى تدّعى عدم قدرة الشعوب المستعمرة على الخروج من واقعها النامى (المتخلف) إلا بالاعتماد على المستعمرين . ولعل أشهر هذه النظريات نظرية الأميركى ثوركس والتى تُسمّى بنظرية (الحلقة المفرغة) . غير أن هذه النظريات الاستعمارية قد دحضها التاريخ المعاصر . فالصين استطاعت إنتاج القنبلة النووية بدون أية مساعدة تكنولوجية أجنبية . كما أن اليابان أصبحت اليوم متفوقة تقنياً على الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا الغربية .

وتؤكد هذه الأحداث بأن الشعوب التى تنشد الحرية والاستقلال تكون قادرة على تحدى الاستعمار واختراق الصعوبات الداخلية والخارجية والمضى قدماً نحو التقدم والازدهار.

كما ظهرت إلى الوجود مفاهيم استعمارية أخرى تتهم الشعوب التى ترفض الاستعمار وتناضل من أجل استقلالها

بـ « الإرهاب » . وقد اتضح ذلك من خلال الادعاءات الأميركية وحلفائها الغربيين .

ولا أدل على ذلك من أن الفلسطيني الذى يريد استرداد أرضه المغتصبة ، أو اللبنانى الذى يريد تحرير جنوبه من الاحتلال الصهيونى ، هما بنظر الاستعماريين والعنصريين إرهابيون ، فى حين أن إسرائيل يعتبرونها دولة ديموقراطية . وهذا منطق متهافت لا يقوى أمام النقد الموضوعى . فهل إسرائيل دولة ديموقراطية لمجرد أنها تجرى كل أربع سنوات انتخابات برلمانية هى أشبه بالمهزلة ، وهل ينسى عملاء إسرائيل أنها دولة قامت على الإرهاب والاغتصاب . وأن الإرهاب الإسرائيلى لا يعادله إرهاب فى العالم على الإطلاق . بينما يُتهم الفلسطينى واللبنانى بالإرهاب لأنه يريد إرجاع أرضه وطرد الغاصبين والمحتلين ؟

كذلك تحاول فرنسا ، الدولة الاستعمارية القديمة ، أن تبقى على سيطرتها فى القارة السوداء ، فتنعت كل إنسان يريد التحرر والاستقلال ، وتصف كل إنسان يساعد الأحرار بصفة « الإرهابى » . وهكذا قلب المنطق الاستعمارى المفاهيم والحقائق : فصار بعرفهم الصهيونى والفرنسى « والإفريقى الجنوبى الأبيض » ، من دعاة الحرية والديموقراطية . بينما الأحرار الذين وعوا ضرورة النضال ، والذين يسعون إلى إيقاظ شعوبهم على الحقائق المعاصرة ، هؤلاء الأحرار أصبحوا فى

عرف الغرب الاستعمارى إرهابيين ومخربين متوحشين لأنهم ينادون بالحرية والكرامة والاستقلال .

غير أن هذا الأسلوب الذى يجند له الاستعمار كل إمكاناته الإعلامية ، قد فشل فى رعزعة الثقة لدى الشعوب المكافحة والتى تفضح يومياً هذا الأسلوب الرخيص .

ثانياً: أشكال السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية:

بعد الحرب العالمية الثانية حصلت أغلبية الدول المستعمرة على استقلالها السياسى عن طريق نضالها الذاتى ، فى حين أن بلداناً أخرى وُهِبت استقلالها دون عناء ، لأن الاستعمار كان قد أوجد داخلها الإدارات والمؤسسات والأشخاص الكفيلين بتأمين استمرار سيطرته . وهكذا وبالرغم من الاستقلال ما زالت معظم الدول تعيش بتبعية شبه كاملة للدول الاستعمارية السابقة وللسيطرة الأميركية التى أخذت تحل تدريجياً مكان السيطرة البريطانية والفرنسية والإسبانية وهذه السيطرة تتم الآن بأشكال مختلفة من خلال التبعيّة شبه الكاملة من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكذلك من خلال ترسيم الحدود الجغرافية للدول المستقلة حديثاً .

1 ـ التبعيّة الاقتصادية :

إن عملية النهب المتواصلة لثروات شعوب العالم الثالث

من قبل الاستعمار ، والتى ابتدأت مع عصر الاكتشافات البحرية ، وازدادت بشكل كبير مع الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، لا تزال مستمرة إلى يومنا الحاضر ، وإن اختلفت نسبياً أشكالها القديمة عن الحديثة . ففى الماضى كانت عملية النهب تتم عن طريق سلب الخيرات المادية والطبيعية مباشرة ، والمتاجرة بالرقيق ، خاصة عندما أخذ الاستعماريون يخطفون أبناء إفريقيا ليبيعونهم كعبيد أرقاء للعمل فى أميركا الشمالية . تحول الاستعمار وابتدع شكلاً جديداً يقوم أساساً على ربط بلدان العالم الثالث به عن طريق التبعية الاقتصادية والتى تأخذ شكلين : المبادلات التجارية والتوظيفات والمساعدات الأجنبية .

أ- المبادلات التجارية :

تقوم صادرات البلدان المسماة متخلفة بالأساس على المنتجات الزراعية ومنتجات الطاقة (أى المواد الخام) . ففى الستينات من القرن الحالى ، شكلت المواد الأولية 90% من صادرات العالم الثالث ، مقابل 40% للبلدان الاستعمارية . وبذلك ظهرت الصيغة الحالية والراهنة لتقسيم العمل الدولى . هذا التقسيم يزداد خطورة إذا عرفنا أن التجارة الخارجية لبلدان العالم الثالث تتم مع عدد قليل من البلدان . وعلى سبيل المثال نجد أن البلدان الإفريقية الناطقة باللغة الفرنسية تنحصر

تجارتها تقريباً مع فرنسا . فى حين أن تجارة أميركا اللاتينية محصورة بالولايات المتحدة الأميركية . وهذا الأمر يؤدى إلى نتائج خطيرة جداً ، حيث تفرض الدول المستعمرة الأسعار التى تشاء على المواد الأولية .

إن التقسيم الدولى للعمل على هذا الشكل أوصل الدول « المتخلفة » إلى تبعية كاملة تجاه الدول الاستعمارية ، بعكس ما ادّعى وزعم بعض الاقتصاديين الذين ادعوا أن المبادلات ضمن التقسيم الحالى سوف تؤدى إلى ازدهار البلدان المتخلفة عن طريق توسيع التجارة وبالتالى فإن ذلك سيقضى على ظاهرة التخلف .

وحتى الأربعينات من هذا القرن ساد الاعتقاد أن التوسع الصناعى سيزيد صادرات البلدان المتخلفة ويؤدى إلى حصول هذه البلدان على التجهيزات الخاصة بالبنى الاقتصادية التحتية، وبلوغ مستوى مواز لمستوى الدول الاستعمارية . غير أن هذا الاعتقاد يدحضه الواقع . فالتوسع الكبير الذى عرفته الصناعة لم يستدع توسعاً مماثلاً لاستيراد المواد الأولية . لأن الدول المصنّعة استطاعت استبدال المواد الأوليّة بمواد بديلة . مثلاً : فى الفترة الممتدة بين 1952 و 1962 تزايد إنتاج القطن بنسبة 24 % ، والصوف بنسبة 11% ، فى حين أن المواد البديلة التى تدخل فى صناعة المنسوجات تزايدت بشكل كبير جداً فى نفس الفترة.

وقـد أدى هذا التـطور إلى تزايـد التجـارة بين البلدان المصنعة ، كما أدى إلى تدهور البلدان الفقيرة . وجعلها فى تبعية كاملة بالنسبة إلى الدول المصنعة ، خاصة لكون أبناء الدول التابعة أخذوا يخفضون من استهلاك المواد الزراعية المحلية من أجل شراء منتجات مصنعة فى البلدان المتقدمة نفسها (سيارات ـ تلفزيونات ـ الخ) . ونتيجة كل هذا ، زاد التفاوت أكثر فأكثر بين الدول المتقدمـة والدول الفقيـرة . وسقطت النظريات الاستعمارية التى كانت تقول بتقسيم العالم إلى قطبين ، الأول مصنّع والآخر منتج للمواد الأولية كما بدأت تتبلور ظـاهرة جـديدة على الصعيـد العالمى ، منـذ مطلع السبعينات ، هذه الظاهرة تجسد السياسة الاستعماريـة فى النهب المتواصل لخيرات العالم الثالث . ففى حين نلاحظ أن أسعار المواد المصنّعة ترتفع باستمرار ، يسيطر على أسعار المواد الأولية عدم استقرار دائم ، كما يسيطر عدم الاستقرار على كمية الإنتاج ، مما يؤدى إلى تقلبات حادة فى القوة الشرائية والتى تترك بدورها آثاراً سلبية على عمليات التنمية . ويأتى عدم استقرار الأسعار بصورة رئيسية عن عملية العرض والطلب . وآلية السوق هذه كان من الممكن أن تبقى مقبولة لولا ظهور الشركات الاحتكارية الكبرى (تروست ، كارتل) التى تسيطر على معظمها الولايات المتحدة الأميركية . والتى أصبحت تجبر كل العالم على الالتزام بالسياسة التى تختارها ، سواء من ناحية الإنتاج أم من ناحية الأسعار . وهكذا تكرست

تبعية العالم الثالث من خلال المبادلات التجارية العالمية الجائرة .

ب ـ التبعية من خلال التوظيفات والمساعدات الأجنبية :

لم يترك المستعمرون وسيلة إلا واستخدموها لتكريس هيمنتهم ولإحكام السيطرة على شعوب العالم . فإلى جانب التبادل غير المتكافىء لجأت الدول الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية إلى أسلوب المساعدات والتوظيفات فى البلدان النامية ، مدّعية بذلك أنها تعمل على مساعدة هذه البلدان من الناحية الإنسانية ، وتساعدها لإنهاض اقتصادها . غير أن هذه المساعدات الضئيلة والتى لا تصل إلا إلى نسبة 1 % من الناتج القومى للبلدان الاستعمارية لم تحصل إلا من أجل امتصاص خيرات بلدان العالم الثالث . وبغض النظر عن التبريرات الأخلاقية المنمقة ، فإن الاستعمار لا يهدف فى نهاية الأمر إلا إلى تكريس التخلف الذى خلقته الدول الاستعمارية ذاتها . فالمساعدات الخارجية تكون فى الغالب مساعدات عسكرية من أجل تثبيت الحكومات الموالية للغرب ومن أجل تمكين الهيمنة الاقتصادية الأجنبية .

ومن الناحية التاريخية ، اشتد توظيف الدول الاستعمارية فى المستعمرات عندما أُشبعت السوق الداخلية فى أوروبا نهباً ، ولم تعد رؤوس الأموال تحقق فيها أرباحاً كثيرة . لذلك فالغاية من تلك التوظيفات لم تكن بأية حال من الأحوال

مساعدة للبلدان الفقيرة . والإحصاءات فى الدول الاستعمارية تثبت ذلك بكل وضوح .

فحسب إحصاءات وزارة التجارة الأميركية ، ارتفع المبلغ الموظف فى الخارج بين عامى 1962 و 1967 إلى 1172 مليون دولار . ولكن المبلغ الذى جنته الولايات المتحدة من التوظيفات فى الخارج فى الفترة نفسها بلغ 6156 مليون دولار ، أى خمسة أضعاف المبلغ الموظف . والفرق بين المبلغ الموظّف والمبلغ الذى أعيد إلى الولايات المتحدة الأميركية يمثل ببساطة المبلغ الذى سلبته الولايات المتحدة من بلدان العالم الثالث .

أما المساعدات التى تقدّمها الدول الاستعمارية إلى الدول النامية فلها هدف أساسى ، إلى جانب تثبيت الحكومات الموالية وتمويل العملاء من الحكّام الذين يحمون مصالح هذه الدول ، يتمحور هذا الهدف حول قضية أساسية وهى السماح لرؤوس الأموال الأجنبية الموظفة فى دول العالم الثالث بتحقيق أقصى قدر ممكن من الأرباح ، هذه الأرباح التى تمثل الوجه الحقيقى والواقعى للنهب الذى تقوم به الدول الاستعمارية لثروات الدول النامية .

وفى دراسة شيقة لأحد الباحثين العرب اللبنانيين وهو الدكتور جورج قرُم ، يُظهر أن 62,6 % من المساعدات التى

قدمتها البلدان الرأسمالية قد تم رصدها لمصاريف البنية التحتية وكتب الدكتور قُرم يقول : « إن لشبكة المواصلات الموجودة فى الكاميرون ، والتى جرى إنشاؤها تحت السيطرة الألمانية والفرنسية والإنكليزية هدفاً واحداً وهو : نقل المواد الأولية خارج الكاميرون . ولهذا السبب تصل الخطوط الحديدية الرئيسية فى البلاد مناطق الاستغلال المعدنى بمناطق الزراعة الكبيرة المعدة للتصدير بالموانىء البحرية . هذا فى الوقت الذى نلاحظ فيه أن المواصلات تنعدم بين بعض مدن الكاميرون الكبرى » .

إن حديث الدكتور قرم يدل دلالة واضحة على أن الاستعمار لا يهدف إلى خير البلدان النامية فى أى تخطيط من تخطيطاته وإنما يسعى إلى تأمين مصالحه فى الدرجة الأولى . وهو لا يهتم بتنمية البنية التحتية فى هذه البلدان كما يدعى ، وإنما يفكر بمصالحه بغض النظر عن أى شىء آخر .

وهكذا نرى أن المساعدات لا تكون من أجل مصلحة الشعوب بل على العكس من ذلك ، فإن هذه المساعدات تقدم من أجل قهر البلدان النامية وتحطيم هويتها القومية . فأكثر من نصف المساعدات الأميركية تذهب إلى إسرائيل التى زرعها الاستعمار فى قلب الأمة العربية ، من أجل المحافظة على هذا الكيان العنصرى الذى يقوم بدور الحارس للمصالح الاستعمارية فى المنطقة العربية . فبعد أن

اغتصبت إسرائيل أرض فلسطين العربية أخذت تحاول التوسع والتدخل للقضاء على الثورة القومية العربية باحتلالها قسماً من أراضى لبنان لمحاولة طمس هويته القومية . أما القسم الثانى من المساعدات الأميركية فإنه يذهب إلى الأنظمة الموالية لها ، فبعد وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، الذى ألهب حماس الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج والذى أرجع إلى العرب عزتهم القومية ، أخذت الولايات المتحدة الأميركية تقدم المساعدات للنظام المصرى كثمن لخيانته بعد أن وقع اتفاقية الذل والعار مع الصهاينة . وكذلك من أجل القضاء على التجربة الاشتراكية الناصرية . التى كان من الممكن أن تُخرِج الشعب المصرى العربى من تخلفه . لكن نظام السادات أجهض هذه التجربة بعد أن صفى منجزاتها ، باسم الانفتاح الذى هو الوجه الحقيقى للعمالة للولايات المتحدة الأميركية .

وكانت المساعدات الأميركية للنظام المصرى عبارة عن أسلحة حديثة ، لا لمحاربة أعداء القومية العربية ، بل على العكس من ذلك ، من أجل محاربة الثورة القومية الرائدة فى الجماهيرية العربية الليبية . لكن الجماهير العربية تصدت لهذه المخططات الاستعمارية . وما زالت الثورة القومية فى ليبيا تحرز الانتصار تلو الانتصار على المخططات الاستعمارية وعلى عملاء وأعوان الاستعمار .

إلى جانب هذه المساعدات ، أنشأ الاستعمار بعض المؤسسات الدولية من أجل إحكام سيطرته وجعل الدول الفقيرة تعيش فى تبعية كاملة له . وأشهر تلك المؤسسات البنك الدولى الذى يمارس منذ تأسسه ، سلطة فعلية على الحكومات المستدينة من أجل تدعيم سلطة الدول الكبرى ، ومن أجل تعديل مشاريعها واتباع سياسات متناسبة مع أهداف الاستعمار ، كما جرى فى التشيلى سابقاً ، حيث رفض البنك الدولى أن يمنح هذا البلد قرضاً بحجة عدم تسديد قرض قديم يعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية . وقد طبق البنك الدولى ذات السياسة تجاه كل من دول البيرو والبرازيل وبوليفيا فى أمريكا اللاتينية . وقد دفع هذا الأمر الرئيس التشيلى الأسبق إلى القول : « إن هذه السياسة التى يعتمدها البنك الدولى تدل على أنه مجرد جابٍ لمؤسسات (وُل ستريت) » أى المصارف الأميركية الكبرى . وهو لا يستشعر على الإطلاق المشاكل الاقتصادية والتنموية للبلدان الفقيرة ، وإنما يهتم بجعل هذه الدول رهينة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية ، وإلا فإنه يلجأ إلى الحجج لمنع المساعدات عنها .

ومن الأمور الدالة على تدخل البنك الدولى فى الشؤون السياسية والاقتصادية للدول النامية التى تحتاج إلى القروض عادة ، اشتراطه عدم نزع الملكية دون دفع تعويضات مناسبة .

وهذا يعنى أن البنك الدولى يتدخل فى الشؤون الخاصة للدول ، كما أنه يقف أمام أى تطبيق للاشتراكية أو الحد من استعمال ثروات الرأسماليين فى البلدان النامية ، علماً بأن الثروات الفاحشة التى يراكمها الرأسماليون من أعوان الاستعمار تقف حائلاً أمام التنمية الحقيقية فى البلدان النامية والفقيرة .

وقد عانت الكثير من الدول من السياسة التى ينتهجها البنك الدولى فى هذا المجال . ومن هذه الدول يمكن أن نذكر الجزائر وأندونيسيا والعراق وتونس ومصر .

وعندما أرادت مصر أيام الزعيم الراحل جمال عبد الناصر أن تبنى السدّ العالى الذى يؤمن لهذه الدولة الاكتفاء فى مجال الطاقة الكهربائية ، ويساعد على الإصلاح الزراعى وتوسيع رقعة الأراضى الزراعية المنتجة ، فإن البنك الدولى منع القروض عن مصر التى تسعى إلى تأمين استقلالها الاقتصادى .

أما غواتيمالا فقد اضطرها البنك الدولى إلى تسديد سندات تعود إلى عام 1829 .

وجميع هذه الأمثلة القليلة من بين أمثلة كثيرة غيرها ، تدل دلالة قاطعة على أن البنك الدولى الذى يدّعى أنه وجد لمساعدة الدول النامية ، ليس فى حقيقة الأمر سوى مؤسسة

من المؤسسات التى أوجدها الاستعمار لينفذ مآربه من خلال مؤسسة تدعى الحياد ظاهرياً وتنفذ سياسة استعمارية فعلياً .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نلاحظ بأن المساعدات الخارجية للدول النامية تشكل بحد ذاتها عملية إفقار من نوع جديد . بالإضافة إلى كونها سلاحاً سياسياً بيد الدول الاستعمارية تستخدمه بالطريقة المناسبة لمصالحها . وهذا ما عبّر عنه الرئيس الأميركى الأسبق ريتشارد نيكسون ، وبشكل علنى ، عندما كتب فى إحدى رسائله الموجهة إلى مجلس الشيوخ ، يقول : « ... إن الذين يأخذون منا باستمرار مواقف عدائية ، لا يمكنهم الاعتماد على مساعداتنا » . وهذا يعنى أن المساعدات التى تقدمها الولايات المتحدة الأميركية مخصصة فقط للحكومات التى تؤيد سياسة هذه الدولة الاستعمارية .

والواقع الفعلى لسياسة المساعدات الخارجية الأميركية ، دفع الكثير من الواعين من شعوب العالم إلى دقّ ناقوس الخطر ، ليس فقط بالنسبة إلى خطورة الدور الذى تلعبه تلك المساعدات فى تكريس التخلف وإحكام السيطرة الاستعمارية على العالم الثالث ، وإفقاره وتجريده من ثرواته ، بل أيضاً إلى ضرورة فضح عملية التنمية التى تحاول الدول الاستعمارية الادعاء بأنها تساعد على بعثها فى الدول المتخلفة .

فالتنمية التى تقول بها الدول الرأسمالية الاستعمارية تقوم أساساً على المبدأ القائل بأن الدول المتخلفة لا تستطيع الخروج من تخلفها إلا بواسطة الاعتماد على رؤوس الأموال والتكنولوجيا ذات المصدر الغربى . وهذا لن يتم من وجهة نظر الدول الغربية ، إلا إذا قام تعاون وثيق بين الدول المتخلفة من جهة وبين الدول الاستعمارية على الصعيدين السياسى والاقتصادى .

وهكذا يظهر جلياً أن الاستعمار يحاول عن طريق المبادلات التجارية ، وعن طريق رؤوس الأموال والمساعدات ، أن يحكم سيطرته على العالم ، مفرغاً الاستقلال الذى حصلت عليه معظم الدول من أى محتوى . وهذا ما يجعل من المساعدات الوهمية التى تقدمها الدول الاستعمارية إلى الدول النامية مجرد خرافة تريد من ورائها ستر ما سببته لهذه الدول من مآس ، وجعل هذه الدول تستمر فى ارتباطها وتبعيتها لدول الغرب الاستعمارية .

لم يكتف الاستعمار بذلك ، بل لجأ أيضاً إلى أساليب أخرى فى السيطرة ، فبعد أن حاول تدمير الشخصية القومية لدول العالم الثالث ، وبعد أن جعل ربطها بسياسة المساعدات والتجارة الدولية ، عمد إلى جعل هذه الدول والشعوب تعيش فى تبعية سياسية واجتماعية كاملة .

2 ـ السيطرة من خلال التبعية السياسية والاجتماعية :

بعد أن تبدلت الظروف وتغيرت المعطيات فى العالم ، اضطر الاستعمار إلى تغيير شكله وتبديل أسلوبه ، فانتقل من مرحلة الاستعمار المباشر إلى مرحلة الاستعمار غير المباشر . لكنه فى عملية الانتقال هذه كان قد أعدّ الظروف والأشخاص والمؤسسات داخل البلدان المستعمرة لتحل مكانه عند رحيله ، ولتقوم مقامه وتعمل لحسابه ، أى لتعمل فى استمرار سلب خيرات شعوب العالم . فعن طريق الأشخاص والأفراد ، وعن طريق المؤسسات استطاع الاستعمار أن يربط البلدان المستقلة به ربطاً محكماً على الصعيدين السياسى والاجتماعى .

فعلى الصعيد السياسى ، أوجد الاستعمار خلال حكمه المباشر جماعات من الناس ترتبط به بشكل مباشر ، تنفذ سياسته عند رحيله . وقد أعد هذه الجماعات لتولى السلطة السياسية فى البلدان النامية لتبقى على ارتباط معه . وبذلك تكونت فى كل الدول المستعمرة فئات من الناس ربطت مصيرها ومصالحها بمصير ومصالح الاستعمار عن وعى أو عن غير وعى . لكنها بعملها هذا تكون قد ربطت البلاد بأكملها بالاستعمار وسخرت خيرات البلاد وجهود الناس لخدمة أهداف المستعمر لأن هذه الفئات التى أوجدها الاستعمار قد أمنّ لها الوصول إلى سدّة الحكم وجعلها فى موقع القرار.

هذه الفئات من المرتبطين بالاستعمار تكتفى بالفضلات التى يتركها لها أسيادها فى البلدان الغربية ، ولكى تقوم هذه الفئات بدورها المرسوم لها ، أقام الاستعمار المؤسسات والأشكال السياسية ، وكذلك الأحزاب التى من خلالها تستطيع أن تتحكم بالشعوب ومصائرها ومستقبلها .

فقد فرض الاستعمار على الشعوب نظماً ومؤسساتٍ سياسية غربية لا تتلاءم مطلقاً مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعوب . واستطاع الاستعمار من خلال هذه المؤسسات والأشكال السياسية والأشخاص الذين ارتبطوا به أن يحكم سيطرته دون اللجوء إلى القوة العسكرية .

وهكذا ، وبعد الاستقلال ، لم تستطع معظم الدول أن تتخلص من التبعية لوجود الجماعات المرتبطة بالاستعمار والتى وُضعت على رأس المؤسسات التى أوجدها الاستعمار قبل رحيله . وبذلك شكلت هذه الفئات والمؤسسات العقبة الكبرى أمام عملية التنمية الوطنية الصحيحة .

ولم يدرك هذه الحقيقة إلا عدد قليل من القادة المناضلين الذين فهموا أن الاستقلال الصحيح لا يمكن أن يتم إلا إذا تم القضاء على الفئات المرتبطة بالاستعمار ، واستبدلت المؤسسات السياسية والاجتماعية التى خلفها الاستعمار بعد رحيله بمؤسسات بديلة .

وكان فى مقدمة الدول التى وعت هذه الحقيقة الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ، التى حطمت كل المؤسسات الموروثة عن الاستعمار ، وأقامت بدائل لها من خلال مؤسسات تنبع من الواقع الحضارى العربى الإسلامى وقضت على الفئات المرتبطة بالاستعمار قضاءً نهائياً لا رجعة إليه .

وهذه الحقيقة أصبحت مثالاً متقدماً يجب أن تتعلمه كل الشعوب المكافحة من أجل الوصول إلى استقلالها الحقيقى ، فبدون القضاء على المؤسسات الموروثة عن الاستعمار ، وبدون القضاء على الأشخاص الذين باعوا أنفسهم للاستعمار مقابل بعض الفضلات المادية ، لا يمكن لأى شعب من الشعوب أن يتحرر وأن يتقدم .

فلكل شعب من الشعوب حضارته وقيمه الفكرية والأخلاقية والدينية ، ولا بد للمؤسسات التى يبنيها هذا الشعب أو ذاك من أن تكون متلائمة مع حضارته وقيمه .

إن الفشل الذريع فى سياسات قادة معظم الدول التى استقلت عن الاستعمار يعود فى الأساس إلى كون القادة فى تلك البلدان لم يفهموا أن الثورة لا تعنى فقط الاستقلال الشكلى ، بل تعنى بالتحديد تدمير كل المؤسسات السياسية والاجتماعية والإدارية التى أوجدها الاستعمار ، والتى ترمى فى نهاية المطاف إلى خدمة الاستعمار نفسه واستمرار هيمنته

السياسية ، وتسلطه على مقدرات البلد واستغلاله لخيراته . وبذلك تشكل المؤسسات السياسية والفئات المرتبطة بالاستعمار المطية التى يواصل من خلالها الاستعمار هيمنته على بلداننا . ويجعلنا نعيش فى تبعية له . وهذا يعنى أن هذه المؤسسات السياسية والاجتماعية التى تبدو وكأنها مظهر من مظاهر الحداثة والتقدم ، ليست فى حقيقتها سوى المراكز والدوائر التى يتمكن من خلالها الاستعمار للنفاذ إلى داخل البلدان ليواصل من خلالها استغلالها.

ولم يكتف الاستعمار بخلق المؤسسات والأشخاص الذين يواصلون عملهم من أجل خدمته ، بل لجأ إلى وسائل أخرى قد تكون أشد خطورة وخصوصاً على الصعيد الاجتماعى .

فقد وعى الاستعمار حقيقة مهمة وهى أن تدمير الشخصية القومية والاجتماعية للشعوب هو السبيل إلى استعمارها وتحطيم معنوياتها . لذلك لم يترك وسيلة إلا واتبعها من أجل تحطيم معنويات الشعوب لشلّ طاقاتها والقضاء على إمكاناتها البشرية ، وليصل من خلال ذلك إلى شلّ كل إمكانية للثورة والتحرر .

ولعل أخطر وسائله فى هذا المجال ، تلك الوسائل التى تمثلت فى محاولته فرض عاداته وتقاليده على السكان فى البلدان التى استعمرها ، مظهراً عاداته وتقاليده وكأنها العادات والتقاليد الوحيدة الصالحة والملائمة لهذا العصر . ومما

يؤسف له أننا نجد قسماً من الشباب قد مارس عادات قبيحة وماجنة، سلبت الإنسان إنسانيته، وسلبت الرجل كرامته ورجولته، كل ذلك كان ظناً منه بأن هذه العادات هى مثال للتطور وللتقدم. وأخذ بعض أبناء البلدان النامية فى تقليد آخر الأزياء الغربية متصورين أن كل ما يأتى من الغرب يمثل التقدم والتحرر . فتنكروا للعادات والتقاليد الوطنية التى لا تمثل لديهم سوى التخلف والرجعية . وبذلك نجح الاستعمار فى زعزعة الثقة بالنفس لدى الشعوب التى استعمرها .

ونجد اليوم كثيراً من الشباب فى البلدان التى كانت مستعمرة سابقاً وحصلت على استقلالها منذ أمدٍ قريب ، تتنكر لواقعها الاجتماعى ، نتيجة لعدم ثقتها بنفسها ، وتتنكر لواقعها الاجتماعى وعاداتها وقيمها الروحية والحضارية والقومية ، متوهمة خطأ أن سبب تخلفها يكمن فى ارتباطها بقيمها السائدة . وتعتقد هذه الفئات الشابة والمضللة بأن حل مشاكلها يكمن فى تقليد عادات وأساليب الغرب الاستعمارى .

لذلك لا بد من عملٍ كبير تقوم به القيادات الواعية فى بلدان العالم الثالث من أجل إعادة الثقة بالنفس للشبيبة ، وعلى القيادات الواعية تقع مسؤولية ذلك طالما أن الشبيبة عرضة للتأثر بالإعلام والدعاية الغربيتين اللتين لا تجد ما يصدهما ويظهر الخطر الناجم عنها .

حسن يوسف المحويتي

ويكمن دور هذه القيادات فى إظهار الدور الاستعمارى فى القناعات التى تبنتها هذه الشبيبة ، وإفهامها بأن تقليد العادات الغـربية بشكـل أعمى ليس فى حقيقة الأمـر إلاّ تكـريسـاً للاستعمار وتكريساً للتبعية . بينما تساعدنا عاداتنا وتقاليدنا على تكريس قيمنا الروحية والحضارية والقومية ، التى يجب المحافظة عليها والاعتزاز بها .

فشرب الخمر والمخدرات لا يعنى بأى شكل من الأشكال تقدماً وتطوراً بل انحطاطاً وتأخراً . والغرب بتشجيعه هـذه العادات القبيحة لا يريد من خلالها إلا القضاء على شخصيتنا وهدر إمكانياتنا الثورية ليسهل عليه بالتالى استعبادنا وامتصاص خيراتنا الطبيعية وتكريس تخلفنا .

3 ـ التبعية من خلال السيطرة الثقافية :

إن الاستعمار الذى لم يترك وسيلة إلا واتبعها من أجل إحكام سيطرته على الشعوب ، خصّ الثقافة بـدور مهم ، فالأمم التى حُكم عليها بالتخلف والتأخر ، هى الأمم التى تمكن الاستعمار من احتوائها ثقافياً وعمد إلى تجهيلها لتعيش فى دياجير الظلام ، مشجعاً روح الدجل والشعوذة والطائفية فيها . وقد نال العرب نصيباً كبيراً من عملية التجهيل هذه . فخلال قرون عديدة ، كانت هذه الأمة ترزح تحت سيطرة الاستعمار الذى حاول إبعادها عن العلم وإبقائها تعيش فى

ظلمة داكنة . هذه الأمة التى حملت ، ولقرونٍ عديدة مشعل الحضارة والتقدم والعلم والاختراع . فى الوقت الذى كانت أوروبا تعيش فى عصر الظلمات والتخلف . والعرب هم الذين نشروا شتى أنواع العلوم والفلسفة ، ولا زالت الدول الأوروبية تستخدم حتى عصرنا الراهن مفردات ومصطلحات عربية للدلالة على العلوم التى أخذتها عن الأمة العربية . فعلم الجبر والحساب والهندسة والطب هى علوم عربية . ويجب أن لا ننسى بأن أول جامعة للعلوم الطبية نشأت فى أوروبا كانت بفضل العرب الذين أنشأوها فى مدينة مونبليه فى فرنسا .

ونرى بأن الدول الأوروبية تعتز وتفخر بأن حضارتها الفكرية تعود بالأساس إلى الحضارة الأغريقية (اليونانية) ، إلا أنها تتناسى بأن الحضارة الأغريقية لم تصلها إلا عن طريق المعلمين والمفكرين العرب بعد أن أغنوا التراث الفكرى والفلسفى الأغريقى وطوروه . غير أن الأمة العربية ، دخلت بعد فترة الازدهار والحضارة ، فى مرحلة انحطاط وتخلف ورجعية نتيجة للاستعمار الغربي ، ونتيجة لسياسة التجهيل التى انتهجها هذا الاستعمار .

ولو تطرقنا إلى وضع الأمة العربية اليوم لوجدنا أنها منقسمة إلى قسمين : كتلة رجعية مرتبطة بالاستعمار وممثلة لمصالحه ، وكتلة تقدمية تسعى إلى إعادة الاعتبار للأمة العربية وتحاول أن تنهض بها من سباتها . ولكن لو حاولنا أن

نحلّل سبب هذا الانقسام لوجدنا أنه يعود إلى الدور الذى لعبته الثقافة والتربية . فالكتلة التى كونتها الثقافة الاستعمارية تحولت عن وعى ، أو عن غير وعى ، إلى مجموعة رجعية ربطت مصالحها بالاستعمار . بينما الكتلة الواعية التى تنبهت لخطر الغزو الثقافى الاستعمارى هى الكتلة التقدمية التى تحاول جاهدة أن تخرج الأمة العربية من كبوتها .

والمعضلة المطروحة على العرب اليوم ، تكمن فى كيفية تخليص الكتلة المرتبطة بالاستعمار ، وجعل كل أبناء الأمة العربية موحدين فى مواجهة الاستعمار . بحيث يشربون من نفس منبعهم الثقافى والحضاري . وهذا ما يتطلب ثورة ثقافية تقدمية متحررة تعيد إلى الأمة ماضيها المجيد والتليد .

ويحاول بعض من الناس أن يبرر سلوك بعض العرب الرجعيين فى تبعيتهم للاستعمار بالقول إن الاستعمار قد أغراهم ، واضطرتهم الحاجة إلى العيش فى فلكه . لكن هذا التبرير يدحضه الواقع ، فهناك عرب أغنياء يحتاج العالم الاستعمارى لثرواتهم ، ومع ذلك نراهم خاضعين للاستعمار وينفذون سياسته . وبذلك نرى أن الحاجة المادية لا يمكن اعتمادها كمعيار لتصنيف الرجعى والتقدمى . ولكن المعيار الأساسى هو التكوين الثقافى والنفسانى والتعليمى . فالثقافة الاستعمارية التى حاولت تدمير الثقافة الوطنية هى المسؤولة عن خلق شخصية عميلة ذليلة ، خانعة وخائفة . ومن هنا تبرز الأهمية

الكبرى لإعادة تكوين الشخصية العربية عن طريق ثقافة جديدة أصيلة ترتبط بقيم ومفاهيم الأمة العربية . والصراع بين القوى العربية التقدمية والقوى العربية الرجعية يجب أن لا يكون مقتصراً فقط على الصراع السياسي أو العسكرى . بل يجب أن يكون فى الأساس صراعاً فكرياً وثقافياً كى يعيد لهذه الفئة غير الواعية والمنحرفة ، أصالتها القومية والوطنية . وبهذا يظهر جلياً أن الثورة الثقافية هى أهم سلاح من أجل إعادة العزة والكرامة للأمة العربية .

ولم يكن الاستعمار الثقافى ليقف عند الأمة العربية فحسب بل شمل القارة الإفريقية أيضاً حيث تمكن الاستعمار من التغلغل داخل الفكر الإفريقى . ومارس أساليب بشعة فى هذا المجال ، فى محاولة منه لخلق المفاهيم العنصرية التى تميز بين الألوان والأعراق والأجناس . لذلك فإن الثورة فى إفريقيا لا بد أن تتنبه لدور الثقافة وأهميتها ، لأن الاستعمار ليس استعماراً اقتصادياً وسياسياً فحسب ، بل هو استعمار ثقافى أيضاً . وقد قدمت قيادة الثورة فى ليبيا مثالاً عملياً بإعلانها الثورة الثقافية وتمكنت من التخلص من رواسب الاستعمار الثقافية ، مما أدى إلى إبراز الثقافة القومية . ولا بد من التمييز هنا بين الثورة الثقافية التى عرفتها الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية التى أرادت تخليص شعوب العالم من رواسب الاستعمار ، وبين الثورة الثقافية التى عرفتها جمهورية

الصين الشعبية والتى هى فى الأساس معركة بين ماوتسى تونغ وخصومه السياسيين . وليس أدل على ذلك سوى تطور الأحداث بعد غياب ماوتسى تونغ حيث وصل إلى السلطة الفريق الذى بدأ مباشرة بانتقاد زعامة ماوتسى تونغ وثورته الثقافية .

ولو عدنا إلى الأساليب التى استعملها الاستعمار فى محاولته فرض ثقافته من أجل تدمير الثقافة الوطنية ، لوجدنا أنه حاول فرض لغته القومية على الشعوب التى استعمرها . ففى إفريقيا قضى على لغات الأفارقة القومية ، وفرض لغاته على أساس أنها لغات عصرية ، وفرضها فى المناهج التعليمية للمرحلة الابتدائية ومرحلة التعليم الجامعى . وكان لهذه السياسة آثارها الوخيمة ، حيث نرى اليوم فى إفريقيا البلدان منقسمة إلى عدة مجموعات لغوية ، كمجموعة الدول الإفريقية الناطقة باللغة الفرنسية ، ومجموعة الدول الناطقة بالإنكليزية . إلى جانب بعض الدول الإفريقية التى تنطق بالبرتغالية . . الخ .

ويحاول الاستعمار فى يومنا هذا ، وفى المرحلة الراهنة ، الاستفادة من الواقع اللغوى الذى أنشأه أثناء احتلاله للبلدان التى استقلت حديثاً . فنجد أن فرنسا قد أوجدت رابطة للدول الناطقة باللغة الفرنسية . وهذا يعنى أن فرنسا كدولة استعمارية قديمة ، وإن كانت قد غادرت الدول التى استعمرتها عسكرياً

إلا أنها تحاول أن تعود إليها لغوياً وثقافياً . ولهذا نجد أن الفـرنسيين يقدمـون المساعـدات الماليـة ويقدمـون الكتب والمجلات مجانياً فى سبيل الإبقاء على لغتهم حية ، لأنهم يدركون بأن اللغة هى إحدى وسائل الربط والاتصال التى يتمكنون من خلالها النفاذ إلى داخل البلاد التى تشتمل على مجموعات من الناطقين بلغة المستعمر . بل إن المستعمر يقدم المنح والمساعدات للطلاب ويعلمهم على نفقته الخاصة ويستضيفهم فى بـلاده لعـدة سنـوات ويمنحهم الشهـادات العليا ، لأنه يدرك بأن هؤلاء الطلاب يمكن أن يجعل منهم ، ومن خلال الثقافة واللغة التى أتقنوها ، وسطاء لمصالحه فى المستقبل .

وإذا كان هذا هو شأن رابطة الناطقين بالفرنسيـة ، فإن إنكلترة كانت قد سبقت فرنسا بإنشاء رابطة الكومنولث لتربط الدول والشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية بها . وقد وضـع الإنكليز تسهيلات من نوع آخر لأبناء الدول المنتميـة إلى الكومنولث ، فمنحهم جوازات سفر يتمكنون بواسطتها الانتقال بين هذه الدول ، كما يتمكنون من السفر والإقامة فى بريطانيا نفسها ، وكأن الاستعمار الإنكليزى يريد من خلال ذلك أن يربط جميع أبناء البلدان التى استعمرها فى الماضى به ، ليبقى على تأثيره ونفوذه فى هذه البلدان .

أما الاستعمار الإيطالى فقد حاول أن يفرض لغته على

الشعب العربى االليبى . وظن أنه قد نجح فى ربط الليبيين به عندما أصبح عدد لا يستهان به من المواطنين الليبيين يتكلمون اللغة الإيطالية . ولتسهيل سيطرته شجع الاستعمار الإيطالى على تعلم اللغة الإيطالية وأدخلها إلى جانب اللغة العربية . وكانت غايته الأساسية من ذلك محاولة تحطيم اللغة العربية وإفسادها . لكن هذه المخططات الاستعمارية الإيطالية باءت بالفشل الذريع ، لأن اللغة العربية فى الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية عادت لتأخذ دورها الأصيل وتظهر من خلال اللغة الوجه العربى المشرق الأصيل .

فاللغة العربية التى حاول المستعمرون الفرنسيون والبريطانيون والإيطاليون أن يقضوا عليها ويقاوموها بشراسة فى المحافل الدولية ، أصبحت اليوم إحدى اللغات الأساسية المعترف بها رسمياً فى الأمم المتحدة .

بالإضافة إلى اللغة ، حاول الاستعمار أن يقضى على الأديان الموجودة فى بلدان العالم الثالث . فقد عرف الاستعمار أن الدين والقيم والمُثل العليا والأخلاق النبيلة للأمة العربية هى القوة الأساسية التى تواجهه وتقف له بالمرصاد . لذلك عمل باستمرار من أجل تحطيم هذه القوة التى تواجهه محاولاً تشويه الدين الإسلامى والقضاء على المثل والقيم التى تؤمن بها الأمة العربية . وفى محاولته طمس اللغة العربية كان يرمى إلى طمس الدين الإسلامى العالمى ، لأن القرآن الكريم أنزل بهذه اللغة .

لكن من أين للاستعمار أن يتمكن من ذلك ، واللغة العربية منتشرة بين ملايين البشر يحملونها على ألسنتهم وفى ضمائرهم ويعتزون بها ، لأنها مرآة لثقافتهم والحاضنة لتراثهم والحافظة لقيمهم وأخلاقهم وعاداتهم . كذلك فإن هذه اللغة مختزنة فى آلاف المخطوطات المنتشرة فى جهات الأرض الأربع هذه المخطوطات فى شتى ميادين العلم والأدب والثقافة تشهد على حضارة العرب وعطائهم العلمى على مر الأجيال والعصور .

وفى إفريقيا ، اتخذ الاستعمار الدين قناعاً يبشر به وينتشر من خلاله . فتوغل فى هذه القارة السوداء بحجة نشر الديانة المسيحية والتبشير بها . فبنى الكنائس وأجبر قسماً من الأفارقة على اعتناق المسيحية بالترغيب والترهيب . وحاول أن يتبع السياسة نفسها فى الجزائر . إلا أن السياسة الفرنسية الاستعمارية فشلت لتعلق الجزائريين بدينهم الإسلامى العظيم . غير أن الاستعمار استطاع أن يحقق بعض النجاح فى القارة الإفريقية عن طريق الإرساليات التبشيرية التى دخلت إفريقيا منذ قرون عديدة ومهدت نفسياً وثقافياً الطريق أمام الاستعمار الغربى . وهذه الإرساليات لم تكن فى أى وقت من الأوقات تعمل من أجل الدين - فالدين منها براء - بل كانت سفارات تمهيدية للاستعمار والاستعباد . وهكذا استغل الاستعمار الدين أبشع استغلال فى سبيل تحقيق أغراضه .

وإذا تطرقنا إلى مسيحية الأفارقة ، وأمعنا النظر فى واقعها ،

لا نجد أنها مسيحية أصيلة أتت نتيجة لإيمـان واعتقاد أو اقتناع ، بل أتت نتيجة للدور الاستعمارى . ويلاحظ اليوم ارتداد أعداد كبيرة من الأفارقة عن هذه الديانة ، نظراً لإدراكهم للدور الذى لعبه الاستعمار فى اعتناقهم لها .

أما فى ما يخص التراث، فقد لعب الاستعمار دوراً هداماً وخطيراً فى تشويهه ومسخه حيث استطاع مسخ شخصية الأمم وزور تراثها، مما جعل كثيراً من المثقفين فى العالم ينبهرون بقشور الحضارة الغربية معتقدين بأن التطور والإبداع لا يتأتى إلا من خلالها، وبالتالى فهم يقلدون الغربيين ظناً منهم بأنهم متطورون وأصحاب تراث زاخر وعظيم.

ولو نظرنا على سبيل المثال إلى الإنتاج الثقافى فى مصر ، لوجدنا أن وظيفة المثقف فى هذا البلد العربى تقتصر على تقليد الإنتاج الأجنبى. فالأفلام والتمثيليات والكتابات المصرية ليست فى الواقع إلا ترجمة وإعادة إنتاج للتفاهات الغربية ، وقد أدى ذلك إلى عملية إفساد هائلة لذوق وثقافة الجماهير ، وإلى انبهارها بالحضارة الغربية التى لا تتلاءم مع مجتمعنا العربى ولا تستجيب لقيمه ومثله العليا .

وهكذا فإن الاستعمار مازال يتحكم بمصائر الشعوب ليس هذه المرة عن طريق القوة أو السلاح وإنما عن طريق قسم كبير ممن يدعون الثقافة ويحملون شعارها عن وعى أم عن غير

وعى، مما جعلهم يعيشون فى عتمة كاملة عن واقع مجتمعاتهم معتقدين بأن التقدم والتحرر والرقى لا يتحقق إلا باستيراد الثقافات من أمم أخرى لا تنسجم فى تطلعاتها العلمية والثقافية مع أصالتها الحضارية التى شوهها الاستعمار.

وهنا لا بد من القول : كيف نستطيع بلوغ التطور والتحرر إذا حاولنا استيراد العادات والتقاليد الغربية التى لا تعبر عن الحضارة الأوروبية أو الأميركية فحسب ، بل على العكس من ذلك ، فهى تعبر عن أزمة الحضارة فى البلدان الغربية وعن انحلالها. فالعادات الغربية التى نحاول أن نتشبه بها اليوم ليست فى الواقع إلا عملية هروب أمام المأزق الذى وصلت إليه المجتمعات الغربية والمتمثل بالانهيار الخلقى، وتناول الخمور وتعاطى المخدرات، وظهور الآفات الاجتماعية التى وصلت إلى مرحلة أن الدول الأوروبية نفسها أخذت تنادى بالإصلاح النفسى الذى يعتمد على تنقية الروح الإنسانية للتخلص من تلك الأمراض الاجتماعية.

كل ذلك عكس ظاهرة الفراغ الروحى والنفسى والفكرى للحضارة الغربية وثقافاتها. فكيف نقتبس منها ما ترفض؟!!

إن عملية الإنسلاخ الثقافى والروحى التى تبناها بعض المثقفين ويدعون الناس إليها عن طريق تقليد الغرب لا تخدم فى نهاية المطاف إلا الاستعمار . لذلك وللقضاء على هذه الظاهرة لا بد من ثورة ثقافية تشمل العالم بأسره بشكل عام .

وتشمل الوطن العربى بشكل خاص . من أجل إعادة الأمور إلى واقعها الصحيح . فالثورة الثقافية المطلوبة هى ثورة على كل الأشكال الفكرية التى غرسها الاستعمار فى النفوس سواء أكانت فى المدارس أم فى الجامعات أم فى العادات والتقاليد . وهذه الثورة هى بشكل أساسى مهمة الأساتذة والمدرسين والطلبة ورجال الاعلام والصحافة ، لإعادة الصفاء إلى تفكيرنا وإلى قيمنا وتراثنا وحضارتنا .

ثالثاً : السيطرة من خلال ترسيم الحدود الجغرافية :

إن الاستعمار فى محاولته السيطرة المطلقة على الشعوب ، لم يترك وسيلة إلا واتّبعها . فإلى جانب محاولاته لتدمير الشخصية الوطنية للشعوب التى سيطر عليها ، وإلى جانب ربطه هذه الشعوب اقتصادياً وسياسياً وثقافياً به ، لجأ إلى أسلوب آخر من أساليبه الخبيثة ، متبعاً سياسته الشهيرة فى الشعار الذى يتبناه : « فرّق تسد » . فالاستعمار كان يعلم جيداً أن الشعوب المغلوبة على أمرها لا بدّ لها فى النهاية من أن تستفيق من كبوتها ، ولا بدّ لها من النضال من أجل انتزاع حقوقها المشروعة ، والتى تتمثل بالتحرر القومى والاجتماعى . لذلك عمد إلى وسيلة مبتكرة هى إذكاء الصراعات العصبية والدينية والقبلية والعرقية . ولكى يؤجج هذه الصراعات ، عمل على إنشاء كيانات سياسية متداخلة

محاولاً تفتيت القوميات عن طريق ترسيم حدود للدول التى اضطر إلى منحها استقلالها . كما لجأ إلى خلق دول عنصرية وأجسام غريبة فى الوطن العربى وفى إفريقيا . فزرع إسرائيل فى قلب الوطن العربى كى تكون الدركى الذى يحرس مصالح الاستعمار ويقضى على إمكانية توحيد العرب . وفى إفريقيا أنشأ الاستعمار نظاماً عنصرياً متمثلاً بدولة إفريقيا الجنوبية كى تمنع الأفارقة من التحرر والتحكم بخيراتهم .

وهكذا نجح الاستعمار نجاحاً كبيراً فى هذه السياسة . فبعد الاستقلال تفجرت الصراعات بين الدول المستقلة حديثاً بسبب خلافات على الحدود التى رسمها الاستعمار فى الأصل . ويلاحظ كل من ينظر إلى خريطة العالم الجغرافية اليوم ، خطوطاً مستقيمة وزوايا مختلفة ترسم حدود المناطق التى أعطيت أسماء معينة . وهذه الحدود ، ليست حدوداً أوجدتها الشعوب ، وليست نتيجة لتضاريس طبيعية وجغرافية تفصل بين الأقاليم ، كما أنها ليست من إنتاج المعطيات التاريخية ، بل هى حدود أوجدها الاستعمار ، فقسم الشعب الواحد إلى عدة شعوب وقسم الأمة الواحدة إلى عدة أمم . كل ذلك انطلاقاً من المبدأ الشهير « فرق تسد » .

إن الاستعمار ، من خلال ترسيخ دعائم الإقليمية فى كل قطر ، ومن خلال وضع الحواجز والفواصل ، كان يرمى إلى

تفتيت القوميات والشعوب . لأنه كان على يقين من أن البلاد الموحّدة قومياً والتى تشكل شعباً واحداً تصبح أمة قوية تصعب السيطرة عليها . فعمد إلى تقسيم الأمة العربية إلى أكثر من اثنتين وعشرين دولة ، راسماً حدوداً لهذه الدول المصطنعة ، مذكياً الصراعات فيما بينها . ولقد نجح الاستعمار فى سياسته هذه ، حيث نرى اليوم أن الصراعات بين حكام هذه الدول المصطنعة ، الذين يخدمون سياسة المستعمر ، أدت إلى استنزاف خيرات الأمة العربية وجعلتها أمة مفككة . كذلك فعل فى إفريقيا وآسيا . فالصراعات على الحدود بين الدول التى تحوى عدة قوميات ليس فى الحقيقة سوى صراعات من صنع الاستعمار وفعله . فحين كان يقوم برسم الحدود ، لم يكن يأخذ بالحسبان العوامل القومية والحضارية ، بل على العكس من ذلك ، كان يحاول زرع التناقضات وتنميتها كى تتفجر فى صراعات متتالية تمنع الشعوب من التفكير بمصالحها الحقيقية .

وبعد وعى هذه الحقيقة الواضحة والمرة فى آن معاً ، أعلنت بعض القيادات الواعية الحرب على هذه الرواسب الاستعمارية ، وأخذت تناضل من أجل حدود جديدة تتلاءم مع مصالح الشعوب والأمم ، فحاول التخلص من الحدود التى رسمها الاستعمار . فحدود الأمة العربية التى تفصل بلداً عن بلد ينبغى أن تزول ، ويجب أن تقتلع إسرائيل كى تعود الأمة

العربية للعب دورها الطليعى الحضارى فى تقدم البشرية . كما أن حدود عدد غير قليل من بلدان إفريقيا وآسيا وحتى أوروبا لا بدّ من تعديلها بشكل يتلاءم مع مصالح الشعوب القومية والوطنية .

خلاصة القول ، إن الاستعمار استعمل كل الوسائل والطرق الممكنة ، وعلى جميع الصعد ، من أجل إبقاء سيطرته على بلدان العالم الثالث . فالتخلص من الاستعمار العسكرى لا يعنى مطلقاً حصولنا على استقلالنا . فلا بد من النضال المستمر للتخلص من إفرازات هذا الاستعمار ، والتى كما سبق وشاهدنا ، ما زالت مستمرة على أكثر من صعيد : الصعيد الاقتصادى ، والصعيد السياسى ، الصعيد الاجتماعى ، الصعيد الثقافى ، الصعيد الدينى ، وأخيراً الصعيد الجغرافى .

وقد وعت قلة من القادة والشعوب هذه الحقيقة ، وأخذت على عاتقها النضال على جميع الجبهات للتخلص من الاستعمار بكل أشكاله وألوانه ، إلا أن هذا النضال يجب ألا يبقى محصوراً ببعض المناطق وببعض القادة القلائل ، فلا بدّ أن يتوسع حتى تصل الثورة العالمية إلى مرحلة تتخلص فيها نهائياً من الاستعمار ، لتحقق إنسانية الإنسان وتعيد إليه عزته وكرامته القومية والوطنية .

الفصل الثالث

الاستعمار وآثاره

أولاً ـ الاحتلال والتجزئة
ثانياً ـ طمس الدين واللغة
ثالثاً ـ نهب الآثار التاريخية
رابعاً ـ القواعد العسكرية

الاستعمار وآثاره

لا تزال بصمات السياسة الاستعمارية فى البلدان المستعمرة ، والتى شكلت نقطة عار فى تاريخها السياسى القديم والحديث ، ماثلة أمام أعين شعوبها ، لكونها خلّفت وراءها آثاراً تسعى جاهدة لإعادة صياغة نفسها فى كل يوم . ويستمر الاستعمار فى بث سمومه وزرع القهر فى نفوس المواطنين ، تارة بالتشكيك فى قدرة هذه الشعوب فى حكم نفسها وتارة أخرى بإيهام هذه الشعوب أنها لا تستطيع النهوض أو رسم خطط تقدمها ورقيها الحضارى والإنسانى دون الاعتماد على القوة الاستعمارية . لذا سعى الاستعمار دوماً إلى إفساد الأفكار الوطنية ، وتدمير الشخصية القومية الواحدة سواء كان ذلك على مستوى الجماعة أم الشعب الواحد ، أم على صعيد الأمة ككل .

وفى سبيل خدمة مصالحه الاستغلالية وتأمين ديمومة بقائه لأطول فترة زمنية سعى الاستعمار إلى نصب القواعد العسكرية بهدف قمع محاولات الاستقلال والتحرر . وفى سياق هذا المشروع ، خلق مشكلة المياه الدولية المجاورة للدول المستعمرة ، والمياه الإقليمية لبعض الدول الأخرى ، وأخذت أساطيله تجوب البحار والمحيطات .

ولم يكتف الاستعمار بسلب حاضر الشعوب والأمم ، بل عمل على سلب تاريخ هذه الشعوب حتى تلك التى تختزن صفحات مجيدة فى تاريخها . وتجلى ذلك بسرقة الآثار التاريخية من تماثيل ومخطوطات ومعارف وغير ذلك من الأشياء التى تعبر عن ماضى الأمة وأمجادها السياسية . وهدف كذلك إلى إشاعة جوّ من الفوضى والفساد فى كل الميادين السياسية والاجتماعية وفى شتى مجالات الحياة الإنسانية .

من هنا نستنتج أن الاستعمار خلّف وراءه آثاراً فى غاية الخطورة يمكن أن نختصرها بالنقاط الآتية :

1 ـ الاحتلال والتجزئة :

من أبرز مظاهر هذا الاحتلال فى القرن العشرين هو اقتطاع جزء من الوطن العربى تمثل فى بناء كيان الدولة العبرية فى فلسطين العربية ، وذلك منذ الانتداب البريطانى عام 1920 حيث تحالفت الصهيونية العالمية مع الاستعمار الدولى من

أجل تعيين مندوب سام (ينتمى إلى الطائفة اليهودية) . أخذ على عاتقه أمر تشجيع هجرة اليهود من مناطق مختلفة من العالم إلى فلسطين . مستغلاً إعلامياً أفعال النازى هتلر الذى بنى سياسته على تصفية بعض الأجناس البشرية . انطلاقاً من سلم للأعراق العليا والأعراق السفلى . فكان تصنيفه العنصرى هذا أن وضع القومية العربية فى درجات متأخرة من سلمه التصفوى .

والتضخيم الإعلامى الذى صاحب هذه النزعة الهتلرية دعم الحركة الصهيونية وجعلها دولة قائمة باسم (إسرائيل) فى فلسطين ، فى حين لم يكن هناك قبل عام 1948 من شىء اسمه الشعب الإسرائيلى . ولم تعرف جغرافية العالم ، ولا تاريخه ، دولة تطلق على نفسها اسم إسرائيل .

ومن خلال هذه الثغرة تمكن الاستعمار من فصل القسم الشمالى للوطن العربى عن قسمه الجنوبى . وبالإضافة إلى ذلك فقد شهد التأريخ أيضاً معارك حافلة بالصمود والاستشهاد والتضحيات عندما حاولت إيطاليا الفاشستية دخول ليبيا بالقوة عام 1911، ولم يخضع العرب الليبيون لهذا الغزو بل هبوا للدفاع عن أرضهم بكل بسالة وتحملوا عبء القتال وحدهم . . واستمرت المقاومة حتى الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت إيطاليا طرفاً فى هذه الحرب مع ألمانيا ضد إنجلترا وفرنسا . . واستطاع الشعب العربى الليبى أن يتخلص من هذا الاستعمار

الفاشستى الوحشى، إلا أن الدولتين الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا طمعتا فيه ، فتمكنت بريطانيا من احتلال مدينتى برقة وطـرابلس وأصبحت مدينـة فزان تحت الحكم الفـرنسى ، واستولت الولايات المتحدة الأميركية على قاعدة هويلس فى طرابلس « التى تُعرف اليوم باسم قاعدة معيتقة الجوية ».

واستمر الاحتلال الاستعمـاري حتى عام 1969 ، حيث تمكن الشعب الليبى ، بفضل ثورة الفاتح من سبتمبر ، بقيادة الضباط الوحدويين الأحرار ، من القضاء على هذه الظاهرة الاستعمارية ، وتحطيم مرتكزاتها على الأرض العربية الليبية ورفع الراية الخضراء بمفهومها القومى والوطنى فوق كل هذه الربوع العربية .

وتابعت الولايات المتحدة الأميركية مسيرتها الاستعمارية ، فى محـاولتها سلب القـرار الذاتى للشعـوب حيث أرسلت أساطيلها البحرية إلى المياة الإقليمية ، كما حصل فى المياه الإقليمية التابعة للجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية تمهيداً لاحتلالها ، والذى تجلى بمحاولات دخولهـا خليج سرت . كما تمكن الاستعمار فى الماضى أيضاً من تقسيم وادى النيل إلى دولتين هما مصر والسودان ، إضافة إلى تجزئة الشام إلى دويلات بما فى ذلك العراق واعتبار جميع هذه الأجزاء مناطق نفوذ تابعة له . كما استطاع نهب السـاحل الجنوبى للجزيرة العربية وساحل الخليج العربى بعد تفتيته إلى

عدة إمارات وسلطنات ومشيخات صغيرة ، انطلاقاً من مقولته فى تفتيت الوحدة العربية داخل منطقة النفوذ الواحدة .

كما استحوذ الاستعمار الفرنسى على كل من تونس والجزائر ، وأنزل فيهما المستوطنين الذين استولوا على أراضيهما ومرافقهما الحيوية بهدف استغلالها وتحويل مواردها إلى الخزينة الفرنسية .

ومن أجل تحقيق هذا الكسب الاقتصادى السياسى وطّن الاستعمار الفرنسى أكثر من مليون فرنسى على أرض الجزائر العربية . إضافة إلى محاولة تحويل الجزائر وجعلها مقاطعة فرنسية فحاول محو اللغة العربية الأم ، واستبدالها باللغة الفرنسية ، مع ما يحمله هذا العمل من معانى ثقافية استعمارية .

أما فى جنوب افريقيا فإن الاحتلال الاستعمارى لها ما زال قائماً على أساس التميز العنصرى بين الاستعماريين البيض والأفارقة الوطنيين حيث السيادة المطلقة للمستعمرين الغربيين على الوطنيين أصحاب الأرض الحقيقيين .

وكذلك الحال فى أجزاء أخرى من شرق وغرب القارة الإفريقية .

ولعل أحدث مظاهر الاحتلال الاستعمارى الغربى غزو

غرينادا، حيث قوبل بمقاومة عنيفة أرغم بعدها المستعمر على الانسحاب .

وهكذا شكّل نضال الشعوب من أجل الحرية والتحرر من قيد الاستعمار حجر الزاويـة فى تحقيق الاستقلال ، ولكن للاستقلال معانٍ متعددة منها السلبى ومنها الإيجابى . وبالتالى علينـا التمييـز مـا بين الاستقـلال الحقيقى بكـل أبعـاده ، والاستقلال المزيف الذى يكون على شكـل هبة من قبـل المستعمر ، ولا يُسطّر بدماء الشهداء وجهود الثوار .

وليس الاستقلال ، كما يعتقد البعض ، هو عبارة عن إعلان دستـور أو رفـع علم أو تنصيب رئيس أو ملك من أفـراد المواطنين المحليين ، فهذا النوع من الاستقلال يشكل امتداداً للاستعمار . ويزودنا التاريخ بأمثلة وحقائق تؤكد أن كثيراً من الدول تتمتع باستقلال زائف حيث ترفع الأعلام الوطنية وتعزف الأناشيد الحماسية وتحكمها حكومات ووجوه محلية ، وهى فى الواقع خاضعة بصورة كلية للاستعمار الأجنبى . والقوات الاستعمارية تستطيع أن تعود إلى هذه البلدان ساعة تشـاء وتحت أية مظلة سياسية . يضاف إلى ذلك وجود مختلف أشكال الاستغلال والسيطرة الاجتماعية المتمثلة بالتصرفات التعسفية فى الداخل . والتى تجلت بتحكم طبقة من السادة المحليين مكـان الأجنبى لتتابـع عملية استعبـاد الجماهيـر الكادحة .

ومن طرق الاستعمار تحويل أرض المعركة الفعلية للصراع الدولى فى الهيمنة على الشعوب المقهورة من مناطقه إلى مناطق بعيدة ، وبالتحديد إلى الدول التى كانت أو ما تزال مستعمرة ، كما حدث إبان الحربين العالميتين الأولى والثانية حيث كان الوطن العربى مسرحاً لهاتين الحربين ، فى حين لم يكن للعرب من مصلحة أو علاقة بها . من هنا سعى المستعمر لإخضاع أكثر دول الوطن العربى عبر تنصيب ملوك ورؤساء وأمراء يسهلون له عملية استباحة الأرض وإقامة الحدود المصطنعة للحفاظ على عروشهم ضمن رقعة جغرافية محددة وليتفرغوا بواسطتها لإهانة الأمة والعبث بحاضر ومستقبل شعوبها .

أما فى إفريقيا فقد ترك الاستعمار بصماته وآثاره السلبية حيث استطاع تثبيت أنظمة عميلة تخدم مصالحه متخذاً منها غطاءً ليستمر فى امتصاص دماء الشعب الإفريقى عن طريق سلب ثرواته الوطنية وقراره السياسى ، من خلال حكومات وأنظمة تدعى الوطنية وتتستر خلف شعارات وطنية تقدمية ، ظاهرها وجه حاكم محلّى وباطنها منفذ لقرار أجنبى . والسبب فى ذلك كون الأجنبى اضطر للخروج من هذه الأراضى بفعل المقاومة ، فأسند مهمات القمع لرموزه المحلية .

وبالعودة إلى نماذج أخرى للدلالة على دور الاستعمار الغربى فى تنصيب عملاء له فى الداخل بغية استمرار تحقيق

سياسته العدوانية على تعدد أشكالها . نلاحظ تلك التجمعات لأشكال دول مرتبطة بالاستعمار الذى عبث فى دولها وشعوبها ، انطلاقاً من الربط بينها بعامل اللغة ، أى لغة المستعمر نفسه ، فلجأ الاستعمار إلى إرساء عملية تواصل لنفوذه الاستعمارى قبل الاستقلال المزعوم وبعده عبر المنظمات أو الهيئات أو الدول . تماماً كما سعت إليه فرنسا فى ربط الدول التى كانت تستعمرها والتى ما زالت تنطق باللغة الفرنسية ، إضافة للغتها الأساسية ، بمنظمة تعقد مؤتمرات دورية تحت اسم « الفرنكوفون » أى الدول الناطقة باللغة الفرنسية . كذلك لجأت بريطانيا العظمى إلى تكريس هذا المبدأ ضمن مؤتمر دول الكومنولوث ، وذلك على النحو السابق ذكره .

2 ـ طمس الدين واللغة :

لا شك أن لكل أمة ديناً تعتقد به ولغة تعتبر وسيلة للتعبير عن ثقافتها . وحين يبسط الاستعمار سيطرته وهيمنته على البلاد يقوم بتحويلها إلى مناطق نفوذ تابعة له سعياً وراء تحقيق أهدافه وأغراضه السياسية والاقتصادية عبر نشر ثقافته وأساليبه فى تنظيم شؤون الدولة وإبراز أشكال حياته الاجتماعية بمختلف أنماطها . وتحقيق هذه الأغراض والأهداف لا يكتب لها النجاح إلا عن طريق القضاء على البنى الأساسية لقيام

الحياة الاجتماعية التي تشكل المحور الأساسى لاستمرار الجماعة البشرية والتى تختصر بالقضاء على اللغة كونها تختزن ثقافة الشعوب والأمم . وكذلك تشويه الدين المنظم لكل أطر الحياة الاجتماعية عبر إظهاره كمسبب لتخلف الشعوب وعدم مواكبتها للتطور الحضارى . وبذلك يكون المستعمر قد هدف إلى تغييب الدين بمفهومه الحقيقى ، باسطاً مسلماته الحضارية على المستوى الاجتماعى والثقافى بهدف طغيان قيمه ولغته على القيم واللغة الأصلية لأهل البلاد الأصليين .

فالاستعمار مثلاً الذى استعمر الوطن العربى انطلاقاً من حقده التاريخى ، والذى تجلى بالحملة الصليبية على المسلمين ، كما ذكرنا فى فصل سابق ، حاول أن يصوّر للمسلمين بأن دينهم متخلف ، وسعى إلى إقناعهم بخرافات وبدع معتبراً ـ فى غياب عملية التواصل التاريخى بين الماضى والحاضر ـ أن المسلمين متخلفون وأن الدين هو السبب فى ابتعادهم عن العلم والتقدم والمدنيّة .

إن ربط سمة التخلف بالإسلام مغالطة تاريخية وفكرية خطيرة . لأن المسلم الحقيقى كان قوياً فى التزامه بعقيدته . والمسلم الذى ارتهن للظلم هو الضعيف فى عقيدته الذى غاب عن ذهنه أن الاستعمار طرح مشروع استعماره انطلاقاً من مقولته التعصبية ضد الإسلام ، وبالتالى جاء بوجه استعمارى صليبى معادٍ للإسلام مشوهاً العديد من التعاليم الدينية ،

ومرغماً المسلمين بالقوة على ترك الصيام بداع يدّعى : أن الصيام يخفف من الطاقة الإنتاجية عند الفرد . والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل المسلم بامتناعه عن الصيام زاد من إنتاجه فى العمل ، أو تقدم حضارياً عبر التاريخ ؟ والجواب على ذلك نتبينه من خلال الرصد التاريخى لمراحل تطور الشعوب والأمم ، فالتخلف حافظ على استمراريته لأن سرّ التخلف يكمن فى تلك الأوضاع السياسية والاجتماعية التى أوجدها الاستعمار ، والتى من خلالها استطاع أن يشوه حقائق الدين لكل أمة .

فدين الإسلام يعتبر فى حقيقته من أبرز دعاة الثورة فى التاريخ ، بل كان أكبر الثورات على مر العصور . وميزته أنه ليس ثورة فئة أو منطقة ، بل إنه دين دعا إلى الثورة العالمية . وكذلك لم يكن ثورة استسلام ، بالمعنى السياسى للكلمة ، بل ثورة مسلحة ودعوة إلى استنهاض كل القوى الجهادية لبناء دولة قوية ترتكز على دينها كمنطلق لتقدمها وفرض حضارتها الإنسانية والثقافية .

إن الظروف الاستعمارية كانت تشكل المانع لتطور الأمة الإسلامية ، خاصة أن هـذا الاستعمار الصليبى سعى إلى طمس حقيقة الدين الإسلامى وخاصة آفاقه العلمية ، فلولا وجوده لكان المسلم أول من وطأ بقدميه سطح القمر ، لأن المتعلم إسـلامياً هـو الذى يفهم مـا هو العلم الإسـلامى

الحقيقى ، فعنده كل أنواع المواقيت ومفهوم الحسابات الدقيقة لدورات الفلك المختلفة .

3 ـ نهب الآثار التاريخية :

من نتائج الهجمة الاستعمارية على شعوب الأرض عموماً ، وعلى شعوب العالم الثالث خصوصاً قيام الاستعمار بسرقة آثار هذا العالم ، من تحف ومخطوطات ووثائق ترتبط بتراث تلك الشعوب ، وتعبّر عن تاريخه الحضارى ، حيث أصبحت هذه الآثار المسروقة تزين متاحفه وقصوره ومؤسساته الرسمية ، دون خجل من أن هذه الآثار تعود إلى حضـارات شعوب أخرى ، ولا تمت بأية صلة لتاريخه أو حضارته . من هنا نلاحظ معاناة الشعوب فى تـأكيد وبـرهنة أهميـة تاريخهـا وحضارتها السليبة . كما حدث فى الوطن العربى على سبيل المثال . مما يدفعنا لعدم السكوت أو الركون لهذا الواقع ليس فقط لما فعله الاستعمار فينا سابقاً ، بل خوفاً مما قد يفعله فى المستقبل . لذا علينا واجب الحفاظ على تراثنا التـاريخى المتمثل بالتعابير الثقافية المتوارثة ، والرموز الأثرية ، والمعبّر عنها بالمخطوطات والوثائق والتحف والمعـادن المشغولـة . يضاف إلى ذلك أن فعل المستعمر يدفعنا إلى اتخاذ إجراءات لاسترداد ما سُلِبَ منا ، والمحافظة على ما تبقى منها ، خاصة فى آسيا وإفريقيا أو أمريكا اللاتينية . وهذا الموقف لا يُفسّر

بالأنانية ، بل بالحرص القومى على إبقاء العلاقة بالماضى علاقة موضوعية وصحيحة .

وفى عملية دفاعنا عن تراثنا والسعى لاستعادة آثارنا التى تشكل خزان حضارتنا وعلومنا وآدابنا ، لا بد من شدّ الرحال إلى عواصم الاستعمار لاسترجاع مخطوطاتنا ووثائقنا بأنفسنا ، والتى تتعلق بجميع مجالات حياتنا الماضية .

من هنا نجد أن شعوب العالم عموماً ، والشعب العربى وفى مقدمته الشعب العربى الليبى بشكل خاص . يعمل على المطالبة باسترداد ما سُرِق من أرضه وتراثه على أيدى الدول الاستعمارية ، من مخطوطات ووثائق تعبّر عن أصالته التاريخية . ولقد أصبح هذا المطلب مطروحاً فى المحافل الدولية ، لأن ما سرق من قبل المستعمرين يعتبر جريمة دولية يجب أن لا تتكرر فى المستقبل .

4 ـ القواعد العسكرية :

خير برهان على سيطرة الدول الاستعمارية على أية دولة من دول العالم هو وجود القواعد العسكرية على أراضيها . ففى القارة الإفريقية ، إضافة إلى الأنظمة العنصرية القائمة والمتمثلة بجنوب إفريقيا ، توجد قواعد عسكرية عائدة للمستعمرين قبل وبعد عمليات الاستقلال المشبوهة . وقد لجأت الدول الاستعمارية ، بهدف كسب وترسيخ قوة

عسكرية ، إلى إقامة هذه القواعد لتضاعف قـوتها المـادية وتطورها الصناعى . خاصة وأن بعض الدول المستعمـرة ، بفعل استعمارها ، تمركزت فى مواقع جغرافية هامة شكّلت لها امتيازاً دفعها لبناء قواعد بحرية أو عسكرية لحماية مصالحها والحفاظ على مواقعها الاستراتيجية .

هذه القواعد اختفت من ليبيا بفضل المقاومة الوطنية ، فى حين أنهـا استمرت فى أجـزاء أخرى من الـوطن العـربى وإفريقيا . كما عمد الاستعمار إلى تغيير أسلوبه العسكرى عن طريق استحداث قوات عسكريـة جديـدة أطلق عليها اسم « قوات الانتشار السريع ». ولعل وجود قوات المارينـز فى لبنان ، منذ زمن غير بعيد ، خير دليل على ذلك . كذلك فإن الولايات المتحدة الأميركية ، عندما حاولت إنقاذ رهائنها فى إيران ، أنزلت طائراتها المروحية وقواتها العسكرية هناك . ولكن بفضل الوعى الإيرانى باءت العملية الأمريكية بالفشل الذريع .

وكثف الاستعمار وجوده العسكرى فى عدد من الدول عن طريق الإكثار من وجود القواعد العسكرية ، ففى تركيا مثلاً توجد أكثر من سبعين قاعدة عسكرية تابعة لقوات الحلف الأطلسى الذى تتزعمه الولايات المتحدة الأميركية ، والتى فى نفس الوقت تشترك اشتراكاً فعلياً مع حليفتها فرنسا فى حرب تشاد ضد الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية من أجل

الحفاظ على حكم العميل حبرى وقواته الاستعمارية . إضافة إلى وجود قواعد عسكرية أخرى فى الصومال ومسقط وسوقطرة فى بحر العرب ، ناهيك عن الأساطيل الحربية الجوالة فى البحار والمحيطات ، وعند المداخل الاستراتيجية كمضيق هرمز وباب المندب وجبل طارق ومضيق الدردنيل .

5 ـ استنزاف الثروات :

إن التنافس الاستعمارى على مناطق النفوذ فى العالم، بالإضافة إلى أنها أصبحت سوقاً استهلاكية للاستعمار الغربى ، لكنها فى نفس الوقت كانت هذه المناطق غنية بثرواتها الطبيعية صناعياً وزراعياً وقد عمد الاستعمار على تجزئة هذه المناطق مما سهل له سلب ونهب ثرواتها واستنزاف مصادرها الاقتصادية وبخاصة فى إفريقيا والوطن العربى. وهذا الوضع المؤلم استهدف كذلك شعوب أميركا اللايتنية وشعوب جنوب غربى آسيا التى عاشت فى الماضى وما تزال فى الوقت الحاضر تعانى من الظروف نفسها . لذا لا نستغرب اشتداد ضراوة المعارك بين الشعوب المضطهدة ، وبين القوى الاستعمارية فى كل الميادين والمجالات ولو أخذنا على سبيل المثال لا الحصر القارة الإفريقية فإنه سيُطرح أكثر من سؤال ذى مضامين تاريخية خطيرة : إلى متى سيبقى الإنسان الإفريقى يعيش فى الكوخ أو الغابة ، مع العلم أن هذه القارة تعتبر من أغنى

القارات فى العالم لما تختزنه من خيرات ومواد اقتصادية هامة ؟

إذ تعيش أغلب أجزاء القارة الإفريقية فى الظلام الدامس ، مع أنها تمتلك كل الإمكانيات التى تؤدى إلى توليد الطاقة الكهربائية ، من مساقط المياه إلى مادة اليورانيوم التى يستعملها الغربيون فى إنتاج الطاقة الذرّية . فهذه المادة هى فى الحقيقة مخزونة فى إفريقيا ، تستغلها الشركات الاستعمارية الغربية خدمة لمصالحها السياسية والاقتصادية ، وعلى حساب أصحابها الأصليين من سكان إفريقيا .

وإلى جانب هذه المادة الهامة توجد كذلك فى إفريقيا معادن أخرى تلعب الدور الفعال فى الدورة الاقتصادية . حيث نلاحظ من خلال الأرقام بأن 75 % من الواردات الخام لمصانع أوروبا الغربية تأتى من إفريقيا .

من هنا تسعى القوى الاستعمارية الكبرى إلى تقسيم العالم ، بما فيه إفريقيا ، إلى مناطق نفوذ سياسى واستغلال اقتصادى على النحو التالى :

أ ـ اعتبار قارة إفريقيا مزرعة ومنجماً للغرب، الذى يحاول جعل الأرض الإفريقية منطقة احتكار لنفوذه ، ومحاولة استعباده الشعب الإفريقى من جديد .

ب - جعل أمريكا اللاتينية مركزا للاحتكار والاستغلال من جانب الولايات المتحدة الأميركية .

ج - تحويل قارة آسيا إلى منطقة نفوذ للقوى النووية الكبرى ، والتى تتواجد فيها وتتقاسمها فيما بينها .

من هنا نستنتج كيف أن مخطط الدول الغربية الاستعمارية والعنصرية والرأسمالية ، تمكنت من تكوين رأسمالها من نهب ثروات الشعوب الأخرى فى إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، واستمرارها فى تنفيذ هذا المخطط العدوانى ، الذى حاول إبقاء سمة التخلف عند الشعوب المستعمرة ، وخاصة فى إفريقيا ، لمنع الشعب الإفريقى من الاستفادة من ثرواته الطبيعية .

لذا نعتبر أن معركة انتزاع الثروات الإفريقية المسلوبة أصبحت مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى كل وطنى إفريقى . حيث أن هذه القارة مضطرة الآن أن تدخل حرب مواجهة مكشوفة مع الاستعمار الذى استنزفها لسنوات طويلة ، وهذا يتطلب فى مرحلة لاحقة ، إيجاد نظام اجتماعى كفيل بوضع سياسة صحيحة تستفيد من الثروات لصالح كل فرد من أفراد الشعب الإفريقى دون استثناء .

ولن تتوقف محاولات الاستعمار لامتصاص خيرات الشعوب إلا عندما ستقوم المواجهة الفعلية معه . فهو يحاول اليوم

استنزاف الثروات المالية الناتجة عن المبيعات النفطية فى دول العالم الثالث عموماً ، وفى الوطن العربى بشكل خاص .

6 - تزوير التاريخ :

يجسّد تشويه التاريخ أو تزويره وطمس حقائقه ظاهرة أخرى من مظاهر الاستعمار الحديث ، الذى يسعى من خلال هذه العملية إلى قتل معنويات الشعوب وسلبها الحق فى مطالبتها بوحدتها ، وحكم نفسها بنفسها . وبالتالى إنكار فضلها فى الاستقلال وجهادها ضد المستعمرين الغزاة .

ويعود سعى الاستعمار إلى محو أو تغيير صفحات من تاريخ الشعوب إلى خجله من عودته إلى تاريخه خاصةً فى العصور الوسطى ، حيث تشكل هذه الفترة الزمنية من تاريخه وصمة عار ، نظراً للهمجية والتخلف اللذين كانا سائدين فى الغرب فى ذلك الوقت . فى حين أن تاريخ الشعوب الأخرى كان حافلاً بصفحات من البطولة والرقى الإنسانى . من هنا نلاحظ أهمية عملية تشويه التاريخ فى ضرب الشعوب والأمم . فالوطن العربى الذى كان يشكّل أرضاً واحدة ، تجزأ اليوم ، والأمة العربية التى كانت أمة واحدة ، أصبحت بفعل الاحتلال الغربى وخاصة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، مجزأة إلى دولٍ عديدة . وعند كل محاولة توحيدية تعيد للوطن العربى وحدته يلجأ الاستعمار إلى تحطيم آمال العرب فى

تكوين دولتهم الواحدة عن طريق إخفاء حقائق تاريخية وطمس حضاراتهم التى كانت تشكل المثل الأعلى لاوروبا فى العصور الوسطى. وقد نجح الاستعمار فى تزوير تاريخ العرب الحضارى فى أوروبا نفسها وفى داخل الوطن العربى أيضاً. ففى أوروبا فان هناك آثاراً فكرية ومادية ما زالت أطلالها ماثلة فى طليطلة وقرطبة واشبيلية وجنوب ايطاليا وجزر البحر المتوسط وفى اليونان والأناضول. وعندما ترك العرب تلك الأصقاع لم يتركوا وراءهم المشانق أو المقابر التى تحوي آلاف الضحايا كالتى تركتها مثلاً ايطاليا فى ليبيا وفرنسا فى الجزائر، وإنما تركوا وراءهم الجامعات ودور العلم وآثار رسالة سماوية حملت الحضارة والقيم الانسانية والأهداف النبيلة.

وإذا ما أراد كل انسان النظر الى هذا الواقع يجد أن المستعمرين والغرب عموماً عندما يحتلون أرضاً لم يحتلوها من أجل غاية نبيلة بحسب ما يدعون بأنهم جاءوا برسالة المسيح (عليه السلام) بل على العكس من ذلك فايطاليا وفرنسا وبريطانيا عندما احتلوا أجزاء كبيرة من الوطن العربى تجاهلوا هذه الرسالة وداسوا على الانجيل بأقدامهم ومزقوا العهد القديم والعهد الجديد ورفعوا راية الخراب والدمار، وهذا يتضح من خلال تشريد آلاف الأسر بل شردوا شعوباً بكاملها كالذى فعلته بريطانيا عندما تنازلت عن احتلالها لفلسطين الى الصهيوينة وزوروا بهم التاريخ وجعلوا منهم دولة قائمة بعد أن جاء اليها اليهود من أقطار مختلفة واستوطنوا فيها

وطردوا أهلها بأساليب معروفة كشراء الأراضي منهم أو ممارسة العنف والارهاب ضدهم. . بالاضافة الى أن هناك بعض المدن العربية تحولت الى مدن اوروبية يدخلها المواطن العربى بتأشيرة دخول أما الذى فى داخلها فيتمتع بالجنسية الاوروبية كمدينتى سبته ومليله فى المغرب اللتين أصبحتا تابعتين لأسبانيا وكل ذلك بفعل السياسة الاستعمارية والخونة من الحكام العرب الذين سكتوا على هذا الاحتلال. وحتى فى الجزائر قبل طرد الاستعمار الفرنسى فقد كان الشعب الفرنسي يعتقد انها جزء لا يتجزأ من فرنسا وانها منطقتهم الجنوبية ولكن بفعل الثوار الجزائريين تم اخراجهم بالقوة ورجعت الجزائر عربية على الرغم من المحاولات الاستعمارية التى حاولت فرنسة الجزائر.

ولم يكتفِ الاستعمار بهذا العمل السلبى ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما حاول أن يطوى سجل كفاح طويل للشعوب فى جهادها ، وإلباس ثمرة الانتصار لعملائه فى الداخل . وخير مثال على ذلك تلك المعارك التى خاضها الشعب العربى الليبى ضد الاستعمار الإيطالى ، والتى دامت أكثر من ربع قرنٍ وقدّم نصف سكانه شهداء فى سبيل الحرية ، منتزعاً بذلك انتصاره من أعتى امبراطورية استعمارية فى ذلك الوقت . وقد حاول المستعمر ، من خلال مخططه الرهيب ، أن يسرق نضال الشعب العربى الليبى ، ويطمس تاريخه ، وكأنه لم يجاهد ولم يقدم الشهداء فى سبيل حريته واستقلاله .

الفصل الرابع

عمـــلاء الاستعمـــار

أولاً: دعاة الاقليمية والحزبية الضيقة
ثانياً: الخونـــة
ثالثـــاً: الرجعية المحلية
رابعـــاً: المتسترين بالدين



عمــلاء الاستعمــار

ليس خافياً على أحد بأن المستعمرين عندما تمكنوا من دخـول الأوطان عنوة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية قد استخدمـوا كل أساليب الخداع والتضليل لاخضاع شعوبها، وكان عليهـم - على الأقل أن يقللوا من نشاطهم فى اذلال تلك الشعوب وسلـب خيراتها، ولكنهم عمدوا الى استقطـاب وتجنيد ضعفـاء النفـوس واستخدامهـم فى نشر ثقافتهـم وتنفيذ سياستهـم الاسـتعمارية عارضين على هؤلاء العملاء كل أنواع المغـريات، وصنعـوا لهـم عروشاً وأغدقوا عليهم الأموال ومنحوهم الاقطاعيات وأباحوا لهم انتهاك حرمات النـاس ضاربـين عرض الحائـط كل القيم والمثـل والاخلاق التى تمثل تراث وتاريخ تلك الأمم والشعوب.

لقد وجد المستعمرون فى تجنيد العملاء سبيلاً للهروب بأنفسهم

من محرقة وجحيم الشعوب التى طالما بقيت تناضل وتكافح من أجل استقلالها وصون كرامتها والحفاظ على ثرواتها. كما تفنن المستعمرون فى خلق الأساليب والطرق من أجل تطويق العمل الوطنى واجهاضه من الداخل قبل أن يستطيع من تحقسق أهدافه، وذلك عن طريق ترسيخ الاقليمية وتفشى النظرة الحزبية الضيقة وايجاد ودعم حكومات رجعية تتسلط على شعوبها وتضطهدهم، بالاضافة الى استغلال المتسترين بالدين أو احتوائهم.

ومن أجل تحقيق ذلك كله عمل الاستعمار على خلق الأسر البرجوازية التى نُصبت فوق عروش خاوية، كما إنه أضفى على بعض هذه الأسر، نتيجة لارتدائها قناع الدين، طابع القدسية، بهدف استدراج ضعفاء النفوس، والتمكن من التأثير عليهم معنوياً وروحياً، تحقيقاً لأغراضه العدوانية وتمريراً لأهدافه.

ومن هنا نستطيع أن نحدد أصناف أولئك العملاء بحسب ممارستهم التى تدلل بشكل قاطع على ارتباطهم بالاستعمار وانهم يخدمون أغراضه من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وهؤلاء هم:

أولاً: دعاة الاقليمية والحزبية الضيقة:

لقد استطاع المستعمرون فى غفلة من الزمن تجزئة العالم والاستحواذ عليه وتوزيعه الى دول متعددة كل دولة لها حدودها المصطنعة وتحت نفوذ استعمارى معين. وأمام المقاومة الشعبيةالعنيفة للاحتلال

والاحتـواء والرافضـة لعمليات الاستغـلال ومصـادرة ثروات الشعوب باشرت الدول الكبـرى بادىء ذى بدء بانتهـاج سياسـة جديدة تمثلت بفـرض وجودهـا وتثبيت أقدامهـا عن طريق انشـاء سفارات وقنصليات ونشر أجهزة مخابراتها فى أكثر من مكان تدعمها القواعد العسكرية التى أرست مواقعها فى أنحـاء متعـددة. . كما أخـذت البعثـات التبشـيرية تجـوب أنحـاء أخـرى لنشر الدعـاية الاستعمارية تحت أسماء مستعارة بالاضافـة الى البعثـات الأثـرية للتوغل فى طول البلاد وعرضهـا. وفى ظل هذه الظـروف عمـد الاسـتعمار الى إثـارة النعـرات الطـائفية والمذهبية ورسـخ روح التعصب القبلى والعشائرى كخطوة تالية من أجل أن يلهو الناس بخلافاتهم لكى يتسنى له الانصراف الى إدارة دفة البلاد وتصريف شؤ ونها الداخلية اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً تبعاً لمصالحه وحاجاته التى جاء من أجلها. . وهكذا نراه قد جعل أهل البلد الواحد أو القطر الواحد ينغلقون على أنفسهم ووضع لهم أوصافاً ومسميات ترسخ وبمرور الزمن ذاتها الاقليمية غير عابئين بالذين حولهم من أوطانهم، وجعل كل واحد منهم ينظر لنفسه فقـط دون غـيره من الناس وكأن الحدود التـى رسمهـا لهـم الاسـتعمار أصبحـت هى موطنهم الأصلى يتشبثون به وليس لأحـد غيرهـم القـدوم اليه أو العيش فيه. وجنـد الاسـتعمار منهـم دعـاة يضعـون التعليمات ويصدرون القوانين لتجسيد هذا الواقع الاقليمى وبغـرض عزل الأقاليم والأقطار عن بعضهـا. كما انـه خلـق نوعـاً من المشـاكل

حسن يوسف المحويشي

الحدودية لكي يحول من خلالها دون أى تقارب فيما بينها، ناهيك عن الذى خلفه هذا الوضع الاقليمى من اختلاف فى اللهجات وفى العادات والتقاليد التى أصبحت الشعوب تعانى منها كثيراً.

ولم يكتف الاستعمار بتفريق الاقطار والأوطان عن بعضها وتجسيد روح الاقليمية بل ذهب الى أكثر من ذلك حيث استغل انتماءات الأفراد القبلية والعشائرية والدينية داخل كل بلد أو قطر وتحويلها الى انتماءات حزبية ضيقة لها مؤسساتها الخاصة ويديرها أناس تم اختيارهم من الذين يتمتعون بمكانة خاصة لدى أبناء جلدتهم أو ممن تربطهم معهم علاقات مصلحية. كما ابتدع المستعمرون التمثيل أو النيابة عن الآخرين وأسسوا لها المجالس النيابية والبرلمانات وأصبح لكل حزب أو طائفة صوتاً فيها ويمثل اتجاهاً معيناً فمنه الديمقراطي والاشتراكى والتقدمى والذى يدعو الى الاستقلال والى ما هنالك من اتجاهات كانت نتائجها وما زالت هو الصراع على السلطة دون النظر الى مصالح الناس الأساسية.
وهذا ما يريده الاستعمار من وراء تشجيعه للحزبية حيث يعمل من خلالها على إضفاء الشرعية على وجوده وعلى تصرفاته وليس له من سبيل إلا أن يقوم بتجنيد من يراه قادراً على ترسيخ ودعم تلك الاتجاهات وتنميتها عن طريق جمع الانصار واغرائهم بالأموال أو اغوائهم بالمناصب الحزبية.

ثانياً: الخونة:

واستطاع الاستعمار ايضاً وعبر تلك الأساليب تجنيد العملاء

واستقطاب الخانعين وتشكيل حكومات تدّعى الوطنية . وعينوا الأمراء والرؤساء وابتدعوا تسميات لوظائف وهمية ضمن سلّم من الدرجات التسلقية لملء الوظائف العامة . واضعين الشروط لإشغال هذه المراكز والوظائف ، وهذه الشروط مفصلة تفصيلاً بحيث لا تنطبق إلّا على قلّة من العملاء والخونة وغيرهم من أصحاب النفوس المريضة الذين جندهم الاستعمار ليخدموا أغراضه ويحققوا أهدافه . لذا يجب عدم الاستهانة بعملية الخيانة ، لأنه لولاها لما استطاع المستعمرون الوصول إلى أى قطر من أقطار العالم ، ولا أن يتمكنوا من قيادة عمليات المقاومة الرافضة للاحتلال وصولاً إلى إعدامهم أو تشريدهم أو نفيهم أو سلب أموالهم وممتلكاتهم واستباحة أعراضهم وحرماتهم . لأن من طبيعة هؤلاء الخونة الإتجار بسرّ وطنهم وبيعه للأجنبى . وقد وصل بهم الأمر إلى بيع شرفهم على حساب إشباع بطونهم حتى التخمة ، وبالتالى تفريطهم بكراماتهم بما مَنّ عليهم الاستعمار من جاه ومال . لأنهم فى الواقع والحقيقة جبناء ، يعملون فى الظل بهدف تزويد المستعمرين بكل المعلومات عن مناطق تواجد الوطنيين من أبناء جلدتهم ، وخصوصاً فى مرحلة المقاومة . ودفعتهم خيانتهم للأرض والشعب إلى القتال إلى جانب المستعمرين ، وتنظيم كتائب خيانية خاضت معارك شرسة . ولكن هؤلاء الخونة لم يتمكنوا من الصمود بوجه ضربات جحافل الوطنيين ، لأن الذى يقاتل للذود والدفاع عن كرامة الأمة

والوطن ، لا يكترث بالحياة والموت . ويكون أشد بأساً وإيماناً بقضيته ، على خلاف العميل والخائن المرتهن للاستعمار الذى يهتم بمصلحته بالدرجة الأولى فيفر عندما يستشعر الخطر .

من هنا فإن عملية قتال الخونة لها الأهمية القصوى ، وتأتى فى أول سلم الأولويات . وقتال الخونة يتوجب أن يأتى قبل قتال المستعمر نفسه ، لأن الخائن الخفى أشد خطراً من العدو الصريح . ولأن الاستعمار لا يستطيع أن يتحرك أو أن يفعل شيئاً من دون هؤلاء العملاء ، فهم بمثابة الجسر الذى يعبر عليه المستعمر ليصل إلى داخل البلاد وليتمكن من أهدافه . وابن الوطن الذى يرتكب الخيانة تجاه أخيه المواطن ، يصبح أشدّ خطراً من العدو ذاته . وهذا ما سعى إليه المستعمرون ليجنبوا أنفسهم المخاطر المباشرة ، إذ يضعوا هؤلاء الخونة فى الواجهة ، وليسهلوا عمليات تخريب النفوس من جهة أخرى عن طريق شراء الذمم وضرب الناس بعضهم ببعض .

وإذا كان الاستعمار قد تغلب على الشعوب المسحوقة والمظلومة فإنما تغلب عليها بواسطة الأساليب الخيانية ، وعن طريق عملائه فى الداخل ، لأن الخيانة والعمالة مكّنت هذا المستعمر من احتلال البلاد ، وشكّل الخونة بالتالى المساعد الأساسى فى تحرير عملية الاستعمار . فالحركة الصهيونية رسمت معالم كيانها على أرض فلسطين العربية بفضل الخونة

من الحكام العرب ، والخونة هم أنفسهم الذين مكنوا أوروبا والولايات المتحدة الأميركية من العودة إلى مناطق التوتر والنفوذ فى آسيا وإفريقيا وأقطار أخرى من العالم ، وهم أيضاً الذين يساعدون هؤلاء المستعمرين للوصول إلى أى بلد من البلدان ، معبرين عن فرحتهم فى خنق أصوات الذين يدّعون تدمير وتعرية المستعمرين .

وإذا كان الخونة قد عاشوا وتنعموا أياماً وسنوات فى ظل أسيادهم المستعمرين ، فإنهم لم يستطيعوا أن يمكثوا أو يصمدوا طويلاً أمام الوطنيين من أبناء بلدهم ، فسرعان ما تنكشف الخيانة ، وترتدّ على أصحابها . تلك هى عجلة الحياة التى تدور وتعيد ذات الأدوار .

وتؤكد حتمية الصراع بين الاستعمار من جهة وبين الشعوب المكافحة من جهة ثانية ، والتى تريد أن تعيش حياة حرة كريمة ، أن الكفاح مستمر من أجل استعادة السيادة الوطنية والقومية ، لبتر أيدى النهب والاستغلال للثروات القومية ، ولبسط السلطة القومية وبجدارة على كل حبة تراب من أرض الوطن . وكذلك التمتع بحياة كريمة وروح معنوية عالية يستحقها كل مناضل وطنى وقومى .

وبالعودة إلى موضوع الخونة ، فإننا نجدهم يعيشون ويترعرعون على الكذب والخداع ، ويفسدون فى كل موقع

يحلّون فيه . لأن الخيانة ترتوى من ينبوع الكذب . فالأمين من أصله لا يمكن له أن يخون أبداً ، وإنما الذى يخون هو خائن فى أصله ائتمنه من ظن به الأمانة فخان . لذا فإن الاستعمار يجند هؤلاء الخونة لأن الخيانة متأصلة بهم ، وهؤلاء الخونة هم الذين يشيعون بين الناس أن الاستعمار خير لأصحابه ، ويدللون بكل وقاحة على ذلك ، لأن هدفهم التفرقة بين الشعب الواحد . منفذين بذلك التعليمات والأوامر الصادرة عن سفارات الدول الأجنبية طمعاً بالوصول أو نيل زعامة ما أو حظوة من المستعمرين . وفى حال حدوث ثورة تحررية فإنهم يواجهونها بعمل مضاد يتولى قيادته الاستعمار والرجعية المحلية ، مستهدفين التقدم والإنجازات وإجهاض الثورة الشعبية فى كل مواقعها ، وإفشال كل ما من شأنه أن يجعل الجماهير الثائرة متمسكة بالثورة الحامية لمكتسباتها .

ويعمل الاستعمار على تسخير هؤلاء الخونة بشكل أو بآخر لمحاربة أية ثورة تحررية ، وذلك عن طريق إعاقة مصالح الشعب فى مشاريعه الثورية . لأن أعداء الثورة هم أعداء البرامج الزراعية والصناعية والتعليمية والإسكانية والصحية والتسليحية والدفاعية . وهذه البرامج تشكل فى حال إنجازها المصلحة الحقيقية للشعوب ، وكل محاولة لتخريب أو إفشال أو إعاقة هذه البرامج تشكل محاولة خيانية للشعب وللوطن ، وتجعل صاحبها عميلاً للاستعمار من حيث يدرى أو لا يدرى .

ثالثـاً: الرجعية المحلية:

أما الرجعية فإنها تمثل قمة الخيانة، والتى بها استطاع المستعمرون تثبيت نفوذهم، لأن القوى الرجعية هى فى خندق واحـد مع القـوى الاستعماريـة. فتصريحـات المستعمـرين واحدة، ومواقفهم العـدوانية من الشعـوب واحدة، وحتى تهديداتهم العسكرية تكون بتنسيق كامـل مع المحليين من الرجعيين. وهم يتوهمون أن هذا التنسيق سينقذهم، غافلين أن قصور الرجعية تقوم على الرمال، فهذه القوة الحليفة من الرجعيين العملاء تحتضر، لأنها لا تملك مقومات الحياة، وبالتالى فإن الاستعمار إنما يمسك بخشبة مهترئة لن تنفعه ولن تساعده على استمرار وجوده.

وتعنى الرجعية، حسب القاموس السياسى، الرجوع إلى عهد السيطرة الاستعمارية والنفوذ الاستعمارى. حين كـان الرجعيون زعماء سياسيين وزعماء دينيين، وكانوا مشهورين بثرائهم وبذخهم واستعلائهم على الجماهير الكادحة، التى لم تكن لتجد قوت يومها. فالرجعية تسعى بكل الطرق والأساليب من أجل العودة إلى تلك العصور الكالحة والمظلمة. أما الرجعيون فى الداخل فقد يعمدون إلى التشكيك بالثورة عن طريق إشاعة جوّ من عدم الاستقرار، ونشر الأكاذيب واختلاق الأباطيل، ومحاولة التوغل فى مؤسسات الشعب العامة بقصد التخريب وإجهاض خـطط التنمية والعمـل على إفشالهـا. وبالتالى، فإنهم يتحالفون مع القوى الرجعية والاستعمارية فى

الخارج ، هذه القوى التى تمدهم بأسباب البقاء من دعم مادى ومعنوى .

هذه القوى المعادية للشعب والصديقة للاستعمار هى التى تحاول إرهاب الشعوب كلما حاولت التخلص من واقع العبودية المفروضة عليها بالقوة والعنف ، وذلك عبر الحكم البوليسى وقيادته الفاسدة، لخدمة مصالح الاستعمار الذى لا يعبأ بالشعب وينكر عليه حقه الطبيعى فى الحرية والكرامة والحياة الشريفة الكريمة .

وتتحالف الرجعية المحلية ، فى أية بقعة من بقاع العالم ، بشكل عضوى مع الاستعمار الأمبريالى العالمى من أجل القضاء على القوة الثورية التحررية ، والتى بدأت تتعاظم فى العالم حيث أن التاريخ يعيد نفسه ، فها هى الولايات المتحدة الأميركية زعيمة الاستعمار الغربى تعود مرة أخرى بعد أكثر من مائة وسبعين عاماً تملأ البحار والمحيطات بأساطيلها وبوارجها جنباً إلى جنب مع أساطيل حلفائها . وتمارس بذلك الإرهاب الدولى الفعلى ضد الشعوب متذرعة بتبريرات لا تمت إلى الواقع بصلة . ومن أجل تحقيق مآربها هذه تحالفت مع الرجعية المحلية والعالمية .

وتسعى الدول الاستعمارية إلى تجنيد ما يمكن تجنيده من عملاء رجعيين وخونة لزجهم فى صراعات ومشاكل دولية عن طريق شراء أصواتهم فى المحافل والمنظمات الدولية كغطاء

لتمرير مشاريعها وخططها العدوانية . كما تهدف من خلال استخدامها للقـوى الرجعيـة والعميلة إلى ضرب الشعـوب وتشتيت قواها الحية والرافضة للسيطرة الأجنبية ، والصامدة بـوجـه الاسـتعـمـار فـى مختلـف مجالاتـه السياسية والثقـافية والعسكرية .

كما تحاول القوى الرجعية أن تخلق تناقضاً بين القوى الصاعدة فى المجتمع الجماهيرى الجديد من جهة ، والمتمثلة بالقوى الطلابية فى العالم ، وبين المجتمع ذاته من جهة أخـرى . ففـى الـوقـت الـذى كانـت فيـه هذه القـوى الطلابية الثورية غير منظمة فى لجان ثورية استطاعت الرجعية أن تستغل هذه الجماهيـر وتضعها فى مـوقف متناقض مـع تطلعـات جماهيرها الوطنية والقومية ، خاصة بالنسبة لتدريبهم عسكرياً وإعـدادهم إعـداداً سليمـاً يـرفـع عنهم شـرّ المستعمـرين والمستغلين والمتسلطـين. وبـذلك تكون الـرجعية قد كشرت عن أنيابها وتحالفت بصورة علنية مع المستعمرين. وهكذا اتضح لنا أن تلك العناصر الرجعية كانت وراء خداع الجماهير إذ كـان عملهم مقتصراً على خدمة أهداف الاستعمار المتمثلة بإفشال كل محاولة تقدم أو حركة تحرر يعبّر الشعب من خلالها عن انطلاقته الجديدة فى بناء السلطة الشعبية وحكم الجماهير الذاتى .

وتستمر تحديات الاستعمار والرجعية للثورات التحرريـة

وقياداتها المخلصة ، عن طريق تحطيم البرنامج الثـورى ، وإيقاف العمل التحـررى وحركتـه الدائمـة ، ظناً منهم أن الإصلاح الزراعى سوف يتوقف . وأن التصنيع سوف يتوقف وكذلك التسليح . وبالتالى يكونـوا قد حـرموا الشعب من استقـلاله الحقيقى المتمثـل فى استثمار مـوارده الـزراعيـة والصناعية ، وحركته العمرانية العاملة على مدّ وتوسيع خطوط المواصلات وبناء المساكن والمـدارس والمستشفيات ، لأن الاستعمار لا يريد أن يكون الشعب حراً ، ولا يريد كذلك أن يتمتع بحكم ثورى يعبر عن تطلعاته وطموحاته .

رابعــاً : المتسترين بالدين :

وقد وجد الاستعمار بأولئك المتسّترين بالدين عملاء جيدين له ، لأنهم يملكون القـدرة على استغفال النـاس ، وعلى التظاهر بالتقوى والصلاح ، وخاصة غير العرب منهم . وهذا الأمر ينطبق تحديداً على المتسترين بدين الإسلام لأن الديانات الأخـرى ، دوافعها صليبيـة وعنصريـة بحتة ، فـلا يحتـاج الاستعمار الغربى إلى تجنيدهم ، لأن أهدافهم من أهدافه ، ولأنهم يشكلون قطباً من أقطابه إذ يسهلون له عملية التبشير بواسطة الحركات التبشيرية التى تغزو العالم أيضاً عبر أجهزة مخابراته التى تتخذ من الملابس الدينية ستاراً لها ، ولقد احتوى الاستعمار معظم الحركات الدينية واستخدمهـا بغية تحقيق أهدافه . كما وأنه ساهم فى تأسيس بعضها وساعدها

فى الوصول إلى السلطة لتفرض نزعتها الإقليمية ومـذهبها الشعوبى ، ولتخلق صدامات مع القوى التقدمية والتحررية باسم الدين . وفى هذا السياق تمّ إنشاء الخلايا السرية لتنفيذ عمليات اغتياليـة لبعض القوى السيـاسية المعـارضة لنهـج الاستعمار ، من خلال طرح تسميات ذات صبغة دينية بغية استغفال الناس وإظهار الرجعيين بأنهم متدينون ومتمسكون بالدين . وهذه الحركات والخلايـا لاقت استحسان الـدول الاستعمارية فعملوا على تشجيعها ودعمها مادياً ومعنوياً .

وتتخذ هذه الحركات من بـريطانيـا والولايـات المتحدة الأميركية وألمانيا الغربية مـراكـز لـهـا . تتصـل مـن هنـالـك بفروعها فى بلدان العالم الثالث . ولعل خير برهان على ذلك ما حدث مع حركة الإخوان المسلمين عندما تآمروا على تصفية جمال عبد الناصر الذى قاد فى 23 يوليو عام 1952 أول ثورة عربية فى العصر الحديث ، حيث كشف هذا المخطط الذى قام به الإخوان المسلمون طبيعة العلاقة بين الاستعمار وهذه الحركـة الدينيـة ، التى كانت تهدف إلى إسقاط جمال عبد الناصر ، القائد الذى حرّك الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج ، وتصدى للعدوان الثلاثى عام 1956 ، الذى تحالفت فيه دول فرنسا وإنكلترة بالتنسيق مع الصهاينة فى فلسطين المحتلة . فاستطاع عبد الناصر أن يُفشل العدوان ويمنعه من تحقيق أغراضه السياسية والعسكرية .

وهكذا تحول هؤلاء الشعوبيون إلى عمـلاء للاستعمـار

الغربى الذى تحالف معهم من أجل ضرب القوى الوطنية التى تدعو الى القومية والاشتراكية وخلق صدامات فى أقطار عديدة باسم محاربة الشيوعية. وعلى هذا الأساس وجد الاستعمار الغربى فى الاخوان المسلمين خير وسيلة لمحاربة غريمه الاتحاد السوفياتى، وقد انعكس هذا النشاط أو التحالف المشبوه على كل الوطنيين الذين ليسوا بشيوعيين ولا باخوان مسلمين واصبح الواحد منهم وخاصة فى المنطقة العربية محروماً من أداء شعائره الدينية حتى لا يتهم بأنه من الاخوان المسلمين وفى نفس الوقت لا يستطيع هذا المواطن أن يدعو الى التقدمية والاشتراكية لكى لا يُتهم بأنه شيوعى أو ملحد. كما أن الإجهار بأن الإسلام دين الدولة أصبح كذلك قولاً رجعياً، لأن حركة الإخوان المسلمين اتخذت من هذه الشعارات غطاءً لأهدافها الاستعمارية، حيث كانت حركتهم تهدف إلى ضرب الوحدة العربية والاشتراكية والقومية.

من هنا ليس مستغرباً أن يتحالف الاستعمار مع الإخوان المسلمين ، فهناك وحدة فى المنطق بينهما ، فكما أنهم ضد الوحدة والاشتراكية والقومية ، ويعتبرون هذه الأهداف متعارضة مع أهداف الدين حسب فهمهم الرجعى له ، ويعتبرون المناداة بهذه الشعارات والمصطلحات خروجاً على الدين بعرفهم ، بل يصلون إلى حدِ اتهام من ينادى بالقومية والاشتراكية بأنه كافر ، كذلك فإن الاستعمار يقف ضد الوحدة والاشتراكية والقومية ، لأسباب أخرى بطبيعة الحال ، لأن الاستعمار لا يهتم بالدين

بل يسعى إلى ضربه وتشويهه ، ويجد فى الإخوان المسلمين خير حليف له لأن هذا الطرف يسهّل للاستعمار تشويه الدين على أيدى أولئك الذين يدعون أنهم متعلقون بهذا الدين .

فاللقاء بين الاستعمار وبين المتسترين بلباس الدين يأتى من اتفاق أهدافهم ، فالنهج واحد واختيار الاستعمار لهذا الفريق كحليف له يسهّل عليه محاربة أى طرح إسلامى حقيقى لا يمت بصلة إلى الإخوان المسلمين ، فيضطر المواطن إلى الابتعاد عن طرح هذه الشعارات الدينية حتى لا يُتهم بالعمالة . أو أن يقبل بالانتماء إلى المعسكر الشيوعى فيرفع شعارات بعيدة عن الإسلام . وهكذا نجد بأن المواطن يجارى هذا المعسكر ، فيعمل للتقدمية والاشتراكية حتى لا يقترب من الإسلاميين ، ويتهم بأنه من جماعة الإخوان المسلمين أو أنه رجعى . وهذا النهج أضاع كل شىء ، فلا تحققت التقدمية والاشتراكية من جهة ، ولا طُرق المفهوم الإسلامى الحقيقى من جهة أخرى . مما أفقد الأمة كل محتوى اجتماعياً ، وبالتالى كل محتوى تقدمياً . وأصبحت الأمة خاوية من المضمون الفكرى مكتفية برفع شعارات براقة لحفظ ماء الوجه فقط . وهذا الانكفاء من جانب الناس الشرفاء ، والذين يخشون أن يضطلعوا بأدوارٍ لا يريدونها ولا تليق بهم ، ساعد حركة الإخوان المسلمين وساعد الشيوعيين على نشر أفكارهم كل من ناحية . فالإخوان المسلمون يدعون إلى الأممية

الإسلامية ، والشيوعيون يدعون إلى الأممية الاشتراكية . وفى الحـالتين يقع العـداء للقوميـة . وهذا يعنى أن الحـركات الشعوبية هى الرابحة فى نهاية المطاف .

فالإخوان يدعون إلى قيام الأممية الإسلامية التى تسقط فيها القوميات وتكون الأقليات فيها متساوية مع الأكثرية مع إبراز الطابع الشعوبى . وكذلك الشيوعية التى تدعو إلى الأممية وهيمنة طبقة البـروليتاريـا حيث يتحول الجميـع إلى عمّال متحدين ضد النظام الرأسمالى ، ويدعون إلى تحطيم الدين وسقوط القوميات ونتيجة لهذه الظروف المتأرجحة بين الشرق والغرب ، يعمل المستعمرون على استقطاب العملاء ، تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم التقدمية .

الفصل الخامس

طرق مواجهة الاستعـــمـــار

أولاً ـ الثورة
ثانيـــاً ـ الوحدة
ثالثـــاً ـ ملء الفـــراغ
رابعـــاً ـ المعاقبة



طرق مواجهة الاستعمـار

خلال القرون الماضية ، استطاع الاستعمار الغـربى أن يتحكم بالقسم الأكبر من الكـرة الأرضية . سـالباً خيـرات الشعوب ومتحكماً بمصائرهـا ، مستخدمـاً جميع الـوسائـل اللاأخلاقية من أجل تحقيق غاياته وأهدافه . وها هو اليوم يحاول ، بالاعتماد على ترسانته الحربية الضخمة ، أن يمنع الشعوب من أن تتحرر وتحقق اهدافها المشروعة على الصعد القومية والوطنية والاشتراكية .

غير أن هذه القوة المادية التى تمتلكها الدول الاستعمارية ، والمؤلفة من الأساطيل والقنابل الذرية ، لم تستطع أن تحقق لنفسها ما كانت تصبو إليه ، من خلال وسائلها التـدميريـة

للوقوف أمام الشعوب ، ولا أن تقهر إراداتها فى التحرر .
ويضرب لنا التاريخ الحديث العديد من الأمثلة عن ثورات الشعوب وانتصارها . فآلة الحرب الهمجية ، لم تستطع أن تهزم شعب فيتنام ، ولا شعوب أميركا اللاتينية . وكذلك شكلت الثورة الجزائرية العربية وانتصارها على المستعمر الفرنسى درساً هاماً للشعوب التى تريد التحرر من الاستعمار .
فالهزائم المتتالية التى منى بها الاستعمار فى عصرنا الحديث لم تكن متأتية عن القوة المادية للشعوب ، بل نتجت فى الأساس عن إيمان الشعوب الذى لا يتزعزع بقضاياها المصيرية العادلة ، وعن القدرة على التصميم ، والقدرة على التضحية فى سبيل الحرية والاستقلال . فهذه الشعوب المؤمنة بقضاياها لم تتردد فى الاستشهاد فى مواجهة الهجمة الشرسة .
لقد أثبت الشعب العربى فى لبنان أن باستطاعته الانتصار على إسرائيل وآلتها العسكرية الجبارة ، بعد أن دنس جنودها أرض لبنان العربى . فالمقاومة الوطنية اللبنانية أعطت دروساً عظيمة للعالم أجمع فى الاستشهاد من أجل المحافظة على عروبة لبنان ، وأجبرت المحتل الغاصب على التراجع عن القسم الأكبر من الأراضى العربية اللبنانية التى كان قد احتلها . وكان سلاح المقاومة الوطنية الذى لا يقهر هو الإيمان بقضاياها العادلة والتصميم على الاستشهاد من أجل التحرر.

وأمام الانتصارات الكبيرة التى حققتها الشعوب بوجه

الاستعمار ، لجأ هذا الأخير إلى إطلاق صفة « الإرهاب » على الحركات الثورية التحررية . وبذلك أراد الاستعمار أن يقلب المفاهيم . فالشعب الذى يريد التحرر والاستقلال أصبح هو الشعب الإرهابى ، بينما الدول التى تمتص دماء الشعوب هى دول تحمل « الحرية » و « الإنسانية » . فقصف إسرائيل للمخيمات وللقرى اللبنانية الآمنة يُعتبر برأى الاستعمار عملاً إنسانياً . كما أن تشريد الشعب الفلسطينى من دياره هو عمل حضارى ، بينما محاولة استرداد الشعب الفلسطينى لحقوقه هى بنظر الاستعمار ، إرهاب . وكذلك الأمر من وجهة نظر الاستعمار ، فإن مساعدة الشعوب المغلوبة على أمرها هو عمل تخريبى ، بينما إبادة الشعوب بقنابل النابالم التى تستخدمها الأنظمة العنصرية والرجعية هو عمل إنسانى .

لكن الاستعمار نسى أو تناسى أن مقاومة المحتلين هو عمل مقدس وواجب وشرعى قضت به مواثيق ومبادىء الأمم المتحدة ، والتى نصت على حق الشعوب فى تقرير مصيرها واختيارها النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى تختاره . من هنا كانت المقاومة الفرنسية المشروعة ضد الاحتلال النازى ، وهذه المقاومة لم تكن بأى حال من الأحوال عملاً إرهابياً باعتراف الاستعمار ذاته . كما أن الثورة الأميركية بوجه المحتلين الإنكليز لم تكن إرهاباً بل مقاومة ترمى إلى استقلال الشعب الأميركى وتقرير مصيره بنفسه .

فكيف يمكن أن نطلق على مهاجمة السفن الإنكليزية فى أميركا وتدميرها صفة الكفاح المسلح للثورة ، ولا نطلق صفة المقاومة المشروعة على الثورة الفلسطينية أو المقاومة الوطنية اللبنانية على سبيل المثال ؟ إن الاستعمار فى سعيه المستمر من أجل إبقاء سيطرته واستغلاله قد قلب المفاهيم ، فكل عمل أو تحرك جماهيرى يرمى إلى التحرر والاستقلال يحاول الاستعمار أن ينعته بالعمل التخريبى أو العمل الإرهابى . غير أن هذه التعابير لن تثنى القوى الثورية الحية المؤمنة بقضاياها المحقة من أن توجد الوسائل الكفيلة بالتصدى للاستعمار الجشع . ولقد أفرز الصراع بين قوى الثورة والاستعمار طرقاً عديدة للمواجهة أهمها الثورة والوحدة وملء الفراغ والمعاقبة ، وسنتحدث عن كل طريقة من هذه الطرق بالتفصيل لنبين أوجه الوقوف أمام الاستعمار :

أولاً : الثورة :

ليست الثورة فى الحقيقة انقلاباً عسكرياً أو انتفاضة شعبية فحسب ، بالرغم من أن الانقلاب أو الانتفاضة الشعبية يمكن أن تعدا من الوسائل التى تخدم الثورة . . إنما هى قبل كل شيء إلغاء وتحطيم للمفاهيم الاستعمارية الخاطئة ، وإحلال مفاهيم تنسجم مع إرادة الشعوب ونهضتها وتقدمها . . إنها ثورة على الوجود الاستعمارى وعلى البنى والهياكل التى أوجدها

الاستعمار . إنها ثورة على العقلية التى أفسدها الاستعمار . إنها ثورة على التخلف والتبعية من أجل تحرير الإنسان وتحقيق عزته الوطنية وأهدافه القومية .

ويشكل الوجود العسكرى الأجنبى حافزاً على الثورة . وهنا يظهر الدور الكبير الذى يجب أن يلعبه أفراد القوات المسلحة الوطنيون . نظراً لامتلاكهم السلاح . فالاستعمار الذى يسيطر على الشعوب بواسطة القوة لا يفهم إلا لغة القوة ، ولا يخرج إلا بالقوة . فالحديد لا يفلّه إلا الحديد . والاستعمار الذى احتل إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية باللجوء إلى القتل والتدمير ، لن يترك هذه المناطق انطلاقاً من مواقف إنسانية ، لأنه أبعد ما يكون عن الإنسانية . إنه سيضطر إلى الانسحاب فقط عندما يواجه بالقوة .

ويمكن أن تنقسم الثورة إلى مرحلتين : المرحلة الأولى هى مرحلة التحرير من الوجود العسكرى الأجنبى . والمرحلة الثانية هى الثورة فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، وهى المرحلة المهمة والصعبة ، لأن فى هذه المرحلة يتحدد المصير الحقيقى للثورة . وهنا تنكشف أصالتها بعد أن تخلص الشعب من الوجود الاستعمارى والعسكرى المباشر ، فإما أن تتمكن الثورة من الاستمرار أو أن ترتد على أعقابها .

إن المرحلة الأولى هى مرحلة الاستشهاد . فتنطلق المقاومة

الشعبية التى تمثل روح الثورة الحقيقية ومعالمها الأساسية ، حيث يتم تدمير جميع منشآت ومصالح العدو حيثما وُجدت . وهذه العملية تتزامن مع تحريض الشعوب على الرفض والعصيان والتمرد . وأمام الضربات المتلاحقة ، على جميع الصعد ، يضطر الاستعمار وأمام هذا الأمر الواقع الذى لا مفر منه ، أن يستسلم ويرحل .

وهذا ما حدث فى بلدان كثيرة . كما أن أعوان الاستعمار يضطرون أمام الثورات الشعبية إلي التخلى عن السلطة ، كما حدث فى إيران الثورة ، عندما أطيح بالشاه ، وفى السودان عندما اضطر النميرى إلى الهرب واللجوء إلى مصر . وكذلك فى الفليبين عندما أجبر كارلوس على مغادرة البلاد .

ولكن الثورة ، لا تعنى فقط التخلص من أشكال الوجود العسكرى أو من أعوانه فقط . وهنا تبدأ المرحلة المهمة والصعبة ، لأن الثورة تعنى تغيير الواقع الاستعمارى المفروض فى كل مجالاته : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . فبعد أن تتحرر الشعوب من الاستعمار المباشر الذى كان جاثماً بقواعده وأساطيله وأجهزته كافة ، لا بد للجماهير من أن تنصرف إلى نقل الثورة فى جميع المجالات ، المادية والمعنوية ، فالثورة بالمفهوم الجماهيرى الثورى هى مسؤولية الجماهير الكادحة الحية التى تأبى وترفض أن تعيش فى ظل القواعد والنفوذ الأجنبيين . ولا تقبل

إلا أن تعيش حرة سيدة فى أوطانها . هذه الجماهير الحية هى التى أعدت العدة تحت أقصى الـظروف ، وقدمت أسمى التضحيات من أجل أن ينقشع الظلام وترتفع رايات الحرية والتقدم .

غير أن الاستعمار المتمثل بالرجعية والصهيونية ، يحاول بكل الوسائل إجهاض هذه الثورات وإفراغها من أى محتوى تقدمى . لذلك لا بد من الوقوف بحزم وجرأة بوجه المدّ الاستعمارى الأمبريالى الذى يحاول استعادة مناطق النفوذ التى خسرها أمام ضربات الثوار . والوقوف أمام هذا العدو الغاشم لا يمكن أن ينجح ويحقق أهدافه إلا بثورة تقـدمية تلتقى وتلتحم مع الثورات الإنسانية والتقـدمية فى جميـع مناطق العالم . هذا التحالف المبنى على الاحترام المتبادل لأمانى وآمال الشعوب ، والقائم على أسس إنسانية وتقدمية ، هو الـوحيـد القـادر على خلق جبهـة تقـدميـة من المنـاضلين والمساندين الذين يحرضون ويشعلون الثـورة . والثورة لا يمكن أن تكون من صنع مجلس أو هيئة أو جبهة ، وإنما من صنع الشعوب صاحبة المصلحة الحقيقية فى الثورة . هذه الشعوب هى المسؤولة بالتالى عن العمل الثورى وعن القيام بمعارك متواصلة وحاسمة من أجل إرساء دعـائم المجتمع الجديد ، وإنشاء مؤسساته التى من خلالها تستطيع الوصول إلى ما تصبو إليه .

إن الثورة يجب أن لا تتوقف إلا بزوال جميع مظاهر الاستعمار وإفرازاته . فكثيرة هى الدول التى تحصل على استقلالها ولكن تحتفظ على أراضيها بقواعد عسكرية تشكل مظهراً من مظاهر الغزو والاستيطان الاستعماري ، وظيفتها إرهاب الشعوب وتهديد كيانها . هذه القواعد تمثل فى وجودها تناقضاً واضحاً مع مطالب الجماهير الثائرة، لأن الجلاء الكلى والشامل يعتبر شرطاً أساسياً لحريتها .

وترفض الثورة وجود هذه القواعد الأجنبية رفضاً قاطعاً وإذا لم يتحقق الجلاء بالوسائل السلمية ، فإن من حق الشعوب ، لا بل من واجبها أن تلجأ إلى القوة لتقويض تلك القواعد ومحوها من الوجود . فالاستقلال يبقى ناقصاً مع وجود هذه القواعد العسكرية التى ترمى إلى القضاء لاحقاً على عملية التغيير التى تريد الجماهير أن تقوم بها .

كما أن الثورة لا تقتصر على هذه المجالات بل تتعداها بكثير . إنها ثورة ضد الرجعيين والوصوليين الذين يخدمون الاستعمار بسنّهم القوانين وإصدارهم القرارات من أجل ترسيخ الثقافة الاستعمارية وحماية مصالحهم الاستغلالية المرتبطة بالاستعمار . والتى لا تتحقق إلا بحرمان الجماهير الكادحة من حقها فى التعليم والغذاء والعيش الكريم . ومن هنا فإن زحف الشعوب الثائرة على كل مظاهر الاستعمار ، وفى كل المجالات هو الحل الأمثل والوحيد . لأن حرية الشعوب لا

تستكمل بالتحرر والاستقلال الوطنى فحسب ، وإنما تكتمل بقيام الثورة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . مما يؤدى إلى تحقيق المساواة والعدالة ، وبذلك تتمزق رايات المستعمرين ، وترتفع رايات الثورة والتحرر الشامل من الجهل والفقر والتخلف والاستعباد ، وبذلك تتحقق إنسانية الإنسان .

وكما قلنا فإن المرحلة الثانية من الثورة هى المرحلة الأهم والأصعب ، وذلك يعود إلى أن محاربة الاستعمار وجهاً لوجه هى أسهل من محاربة مخلفاته غير الظاهرة ، فالقوة الثورية للجماهير تجابه القوة الاستعمارية وتنتصر عليها بالإرادة والتصميم ، ولكن محاربة الجهل والفقر والتخلف ، وهى من مخلفات الاستعمار ، لا تكفى فيها قوة الرشاش والمدفع ، وإنما تحتاج إلى عزيمة ثورية . كذلك فإن المرحلة التالية من الثورة تحتم على الثوريين قلب المؤسسات التى خلفها الاستعمار وراءه ورسم عليها شكل المؤسسات الوطنية . هذه المؤسسات ينبغى الحفاظ عليها إذا استطاعت أن تكون لصالح الجماهير ، وعلى الجماهير أن تأخذها كمكتسبات ، ولكن هذه المؤسسات ذاتها إذا استمرت فى خدمة مصالح الاستعمار بعد رحيله فإن على الثورة أن تطيح بها إطاحة تامة ، وأن تُحل مكانها مؤسساتها الثورية التى تبنيها الجماهير بنفسها . ويبقى القول هنا ، بأن الثورة لا تقتصر على زمنٍ محدد ، بل هى فعل جماهيرى مستمر ، لا يتوقف على الإطلاق طالما أن

هدفها تحقيق إنسانية الإنسان والوقوف بوجه كل من يحاول أن يسلبه إنسانيته .

ثانياً : الوحدة :

إن أساس التجزئة التى أوجدها الاستعمار فى العالم جاءت من المبدأ الاستعمارى ، القائل : فرق تسد . وقد تركت هذه السياسة انعكاسات سلبية وسيئة على كل الشعوب . وهنا تبرز الوحدة كرد على التحديات الاستعمارية التى استفادت كثيراً من التجزئة . لذلك لا بد للشعوب من النضال الجديد والعمل الدؤوب من أجل تحقيق أهدافها الوحدوية . باعتبارها الرد التاريخى الحاسم على كل التحديات الاستعمارية ، والقاعدة الأمينة والأرضية الصلبة ، التى تنطلق منها القوة الثورية الحية لتسدّ الثغرات التى يحاول الاستعمار من خلالها بسط سيطرته من جديد .

ولقد عمل الاستعمار بكل الوسائل على تفكيك الأواصر الوطنية والقومية ، ليس فقط داخل كل أمة ، بل أيضاً داخل كل قطر من أقطار الأمة الواحدة ، ومن هنا تبرز أهمية وضرورة العمل على إعادة الوحدة الوطنية فى كل قطر كخطوة ضرورية ملحة ، لا بل واجباً مقدساً على طريق وحدة الشعوب التى كان العالم ينعم بها قبل تدخّل القوى الاستعمارية والتى عملت على تمزيقه وخلخلته عن طريق تغذيته بالمفاهيم

العنصرية والطائفية والإقليمية والحزبية الضيقة ، وكذلك ترسيخ الفوارق الطبقية الشاسعة .

ومن البديهى القول أن أى قطر من أقطار العالم لا يستطيع منفرداً أن يجابه هذه التحديات الخطيرة ، ويواجه تلك القوى الاستعمارية الشرسة ، إلا إذا حقق وحدته الوطنية ، وتساند مع أقطار أخرى خصوصاً إذا كان أحد هذه الأقطار يتميز بحجم سكانى متواضع ، مع ضعف فى القدرات العسكرية والاقتصادية . لذلك فالجهود القطرية المتفرقة لا يمكن أن تحقق أى هدف لكن الجهود الجماعية هى القوة الأساسية التى من خلالها يمكن دحر الاستعمار على جميع الجبهات . ولقد وعى الاستعمار أهمية وخطر وحدة هذه الشعوب على مصالحه . فلم يترك وسيلة إلا واتبعها من أجل تجزئة تلك الشعوب كى يتمكن من استغلال قدراتها المادية والمعنوية .

ولا يزال العالم اليوم ، بالرغم من التقدم والتطور الذى عرفه على الصعيد المادى وظهور المبادىء والقواعد القانونية الدولية وإنشاء المنظمات الدولية ، لا يزال كما كان فى السابق يخضع لشريعة القوة . والشعوب المتخلفة والنامية تستطيع أن تملك القوة عن طريق الوحدة التى تجنّد بواسطتها كل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية والعسكرية لمقاومة الاستعمار . ولتحقيق هذه الوحدة لا بد من توافر أربعة أمور أساسية :

1 ـ تحرير الشعوب من الاستعمار العالمى والرجعية المحلية ، ومن جميع أشكال العنصرية والطائفية والحزبية الضيقة .

2 ـ تحطيم الحواجز المصطنعة وإلغاء القيود وجميع المقوّمات والعراقيل التى قد تقف حجر عثرة أمام الوحدة .

3 ـ وعملية الوحدة لا تتم إلا إذا تولت أمور الجماهير عناصر وطنية مخلصة يختارها الشعب بنفسه وبملء حريته أى باختصار أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها .

4 ـ توفر قيادة جماعية واحدة .

وتوفّر هذه المستلزمات الأربعة تمكّن الشعوب من تجاوز سلبياتها ، ويؤدى بها إلى الانتصار على المستعمرين . والنصر لا يمكن أن يحالف كل قطر أو بلد على حدة ، نظراً لكون الاستعمار يستطيع التفرد به واستعماره من جديد .

ولو نظرنا اليوم إلى خارطة العالم السياسية ، لوجدنا أن الدول الكبرى القوية التى تخشاها جميع الشعوب هى الدول التى حققت وحدتها القومية منذ زمن طويل . فالولايات المتحدة الأميركية ، هى عبارة عن إحدى وخمسين ولاية ، أو إحدى وخمسين دولة متحدة مع بعضها بعضاً . وكذلك الاتحاد السوفياتى الذى يتكون من أكثر من خمس عشرة جمهورية . وهذه الدول الكبرى لم تكن لتتوصل إلى ما وصلت إليه لو بقيت دولاً مفككة . فالقوة الاقتصادية

والتكنولوجية والعسكرية التى وصلت إليها كل من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتى ، كانت نتيجة للوحدة . وأوروبا الغربية التى أصبحت ضعيفة تجاه الجبارين تحاول أن تقيم الوحدة بين دولها لقناعاتها بأن الوحدة هى السبيل الوحيد للقوة . وما السوق الأوروبية المشتركة إلا خطوة أولى على طريق وحدة دول أوروبا الغربية .

أما الشعوب الأخرى فى إفريقيا والوطن العربى وأميركا اللاتينية وآسيا ، فإنها بقيت مفككة بالرغم من توفر العوامل الوحدوية فيها أكثر من توافرها فى الولايات المتحدة الأميركية أو الاتحاد السوفياتى ، وخير مثال على ذلك الأمة العربية المجزأة إلى أكثر من 22 دولة بالرغم من أن هذه الدول أجزاء من شعب واحد له نفس الحضارة ونفس الثقافة ونفس اللغة ونفس العادات والتقاليد ونفس الدين . فى حين أن الولايات المتحدة تحوى شعباً من أصول مختلفة ، وكذلك الأمر بالنسبة للاتحاد السوفياتى الذى يحوى شعوباً متعددة تتكلم لغات مختلفة ، ولها ثقافات مختلفة وأديان مختلفة . فلو عاد الوطن العربى دولة واحدة لأصبح دولة كبرى تحوى إمكانيات بشرية واقتصادية وثقافية هامة يستطيع من خلالها الوصول إلى أعلى المستويات . ومن هنا كان الاستعمار وأعوانه من الرجعيين العرب يعملون بكل قوة وشراسة على إبقاء الأمة العربية أمة مجزأة ، لأنهم يعلمون أن وحدة العرب تشكل تهديداً لهم وفيها القضاء على مصالحهم .

ولم يكتف الاستعمار بتمزيق الأمم والشعوب بل حاول اقتطاع أقطار وضمها إليه ، وجعلها جزءاً لا يتجزأ من أراضيه ، ساعياً إلى إضفاء طابع الشرعية الدولية على عمله . ففرنسا حاولت إقناع العالم بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا . ولتبرير غايتها أمام العالم كانت تدّعى بأن أولاد المستعمرين قد ولدوا فى الجزائر . لذلك فالجزائر هى بلادهم . وبما أنهم فرنسيون فالجزائر هى جزء من فرنسا . لكن الشعب الجزائرى البطل استطاع أن يسقط تلك الخرافة ، ويكشف زيف الأمر الواقع والشرعية الكاذبة التى حاول الاستعمار الفرنسى تثبيتها .

وانتصار الشعب الجزائرى على فرنسا لم يتم عن طريق القانون الدولى ، إلا بعد كفاح مسلح مرير ، حيث إن القانون الدولى لم يكن ليعطى هذه الشرعية لولا كفاح الشعب الجزائرى . فالقانون الدولى هو قانون لموازين القوى التى فرضها الاستعمار نفسه . ومن هنا لا بدّ من النضال من أجل تغيير هذا القانون الذى يخدم القضايا الاستعمارية . والقانون الحقيقى الوحيد والصحيح هو القانون الذى يضعه كفاح الشعوب والذى تصدر عنه الشرعية ، بل هو الشرعية بعينها .

نصل إلى الحقيقة التى لا يمكن تجاهلها والتى تقول بأن تحالف الشعوب الحية المتجسد فى حركات التحرير هو بداية ردّ الفعل الإيجابى للقضاء على كل أشكال الاستعمار فى

العالم . وبدون هذا التحالف لا تستطيع هذه الشعوب أن تحيا بسلام وحريـة وكرامـة ، نظراً للطبيعـة العدوانيـة الغاشمـة للاستعمار الذى يتحين الفرص دائماً من أجل استـرداد ما خسـره . والوحـدة هى السـلاح الفعـال القـادر على ردع الاستعمار وأعوانه ولقد وعت الشعوب الإفريقية هذه الحقيقة . وتحاول تحقيق وحدتها وإن بخطى بطيئة . وكان أول شكل من أشكال هذه الوحدة هو قيام منظمة الوحدة الإفريقية . وقد وعت هذه المنظمة أن التصدى للتحديات العنصرية التى تصدر عن الأنظمة العنصرية المستوطنة فى إفريقيا لا يتم بالعمل القطرى المنعزل ، فشكلت لهذا السبب لجنة عسكرية تضم حركات التحرر ودول المواجهة لتوحيد الجهود ضد محاولات الاستيطان والوصاية الاستعمارية على الشعوب الإفريقية . غير أن هذه الخطوة ، وإن كانت هامة ، إلا أنها لا تكفى لمواجهة المستوطنين والاستعماريين . إذ أنه لا بد من خطوات وحدوية وتضامنية أخرى ، حتى تتشكّل القوة الكفيلة بالقضاء على الاستعمار وإفرازاته .

ثالثاً : ملء الفراغ :

يحـاول الاستعمار دائمـاً التسـرب إلى البلدان الأخـرى مستخدماً جميع الثغرات ، إما على الصعيد الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى أو العسكرى ، انطلاقاً من نظريته فى ملء الفراغ . فإذا تبين له وجود إمكانية فراغ فى قطاع من

القطاعات سارع إلى احتلاله مستعيناً بقواه العسكرية أو بعملائه داخل كل بلد . لذلك ، ولسد الطريق أمام الاستعمار ، يصبح واجباً على كل قوى الثورة فى العالم أن تتجه نحو ملء الفراغ ، وسدّ جميع الثغرات التى قد تشكل ثغرة لدخول الاستعمار من جديد . وإذا تقاعست تلك الشعوب عن إتمام هذه المهمة فإن بلدانها سوف تتحوّل إلى أراض خصبة للقوى الاستعمارية . ومن هنا لا مجال للانتظار لأن الاستعمار لا ينتظر . ولا يمكن الحديث عن انتظار الظروف الملائمة للقيام بالثورة والوحدة ، لأن الاستعمار لا ينتظر فهو مستعد باستمرار للانقضاض على الشعوب .

فعملية ملء الفراغ هذه ، يجب أن تتمّ على جميع الصعد ، الصناعية والزراعية والخدمات والثقافة والشؤون العسكرية . فعلى كل فرد من أفراد المجتمع أن يقوم بعمله وبدوره الإنتاجى على أحسن وجه فى القطاع الذى يوجد فيه . فالإخلاص للعمل الذى يقوم به الإنسان هو الذى يؤدى إلى تطوير البلاد ، والاستغناء عن الأجانب يتم عن طريق التعليم المكثف فى جميع جوانبه وميادينه العلمية ، وبهذا يفقد المستعمر مبراراته التى كثيراً ما يوهم الآخرين بها ، حين يدّعى أنه يدخل البلاد لتعليم سكانها وإخراجهم من التخلّف لأنهم غير قادرين بمفردهم على ذلك .

فى الماضى والحاضر ، وعلى المستوى الدولى والعالمى ،

كان الغزو الاستعماري ولم يزل ، سواء كان سياسياً أم عسكرياً أم اقتصادياً ، يفتش عن مناطق يسهل اختراقها ليستعمرها ويستغل شعوبها ، لذلك لا بد من مواجهته بالبحث عن الوسائل الكفيلة بجعل الشعوب قوية وقادرة على التصدّى له . هذه القوة الذاتية للشعوب هى الوسيلة الوحيدة لديها لضمان استقلالها ، وإبراز شخصيتها القومية . ولا تنجلى هذه القوة الذاتية ، ولا تصبح فعّالة إلا بعسكرة جميع المؤسسات استعداداً لأية مواجهة . غير أن القوة لا تكمن فقط فى السلاح العادى المادى ، بل أيضاً تتمثل بالتحصيل العلمى الحديث . لذلك لا بدّ من العمل الدؤوب لاكتساب العلوم بشتى أنواعها وخاصة العلوم التقنية التى تجعل تلك الشعوب تتحكم بخيراتها وطاقاتها ، وتستطيع كذلك بناء صناعتها بشكل مستقل ، كما أن تقدّم القطاع الزراعى الذى يعتبر من أهم القطاعات فى العالم الثالث يرتبط ارتباطاً وثيقاً اليوم بالعلوم التقنية . وهكذا فإن الفراغ سوف يحصل إذا لم تعمل الشعوب على إيجاد كوادرها وإطاراتها الفنيّة والعلمية على كل المستويات . فوجود هذه الأطر الوطنية الثورية كفيل بسدّ كل الثغرات التى من الممكن أن يتسرب منها الاستعمار .

وفى هذا المجال تبرز الأهمية القصوى للثقافة الجماهيرية للشعوب . فالاستعمار غالباً ما استغل الفراغ الفكرى والجهل والأمية ، من أجل ترسيخ دعائمه . لذلك يتوجّب إحلال

الثقافة الجماهيرية مكان الثقافة الاستعمارية كى تتمكّن الشعوب من التحرّر لتنطلق نحو الأفضل .

إن القوى الاستعمارية لا تريد لأى شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم أن تنمى قدراتها الذاتية وترسم طريقها فى الحياة . لذلك ، ولتحطيم محاولات الاستعمار ، لا بدّ من تعبئة جماهيرية وخلق وعى وإيمان وتنظيم واعٍ على جميع الصعد ، حتى يصبح من المستحيل على القوىً الاستعمارية الوقوف بوجه إرادة الشعوب فى التحرّر والاستقلال .

إن تأكيد الاستقلال بالاعتماد على الذات ما هو فى النهاية إلا جانب من جوانب ملء الفراغ . ولذلك لا بد من التعبئة العامة لكل طاقات الأمم وإمكانياتها وقدراتها وخيراتها واستخدامها استخداماً سليماً ، للوصول إلى الاستغناء عن كل الخدمات الخارجية . فالاستعمار فى كثير من الأحيان يدخل من باب المساعدة الفنية . إلا أنه عن طريق هذه المساعدة يعمد إلى إلحاق الضرر بالشعوب ، ويربطها به ربطاً محكماً حتى يستغل خيراتها وثرواتها .

ولكل هذه الأسباب تصبح معركة إثبات الذات ضد المستعمرين ، معركة أخرى من معارك التحرير التى يجب الاندفاع نحوها بكل الوسائل الممكنة لتفويت الفرصة على المستعمرين وإرغامهم على الاستجابة للإرادة الثورية . فإما

الاستقلال التام وإما التبعية والذل والاستعباد . إن الإنسان الجديد الذى يريد أن يعيش حراً كريماً مستقلاً ، لا بدّ أن يتحمل كل الأعباء، ويسدّ كل الثغرات التى يريد الاستعمار الاندفاع من خلالها. هذا الإنسان الجديد يجب أن يكون مالكاً لقراره قادراً على النضال العسكرى والنضال السلمى، العِلمى والفكرى والثقافى، لأن هذه الأشكال النضالية المختلفة تشكل كلاً واحداً لا يتجزأ . والذين لا يتحملون تلك الأعباء والمسؤوليات ، فإنهم يساهمون فى إحداث الفراغ الذى ينتج عنه الغزو الاستعمارى فى جميع مجالات الحياة حيث لا تستطيع الشعوب بعدها مواجهته بسهولة ويسر.

رابعاً : المعاقبة :

عندما تمكنت الدول الاستعمارية من فرض سيطرتها على الشعوب واحتلت مناطق عديدة فى أنحاء العالم ، لم تترك جريمة إلا وارتكبتها بحق تلك الشعوب . فألحقت أضراراً بالغة بممتلكات الشعوب وأرزاقها ، ولم تكتف بذلك ، بل شرّدت أُسرهم واستباحت أعراضهم ، وسرقت آثارهم التى تشكل جزءاً من تراثهم القومى . ومارست كذلك أبشع سياسات الحرمان والتجويع على شعوب المناطق التى احتلتها . لقد مورست أعمال يندى لها جبين الإنسانية ، ويخجل منها الضمير ، كالتجارب الطبية التى أجريت على

شعوب العالم المستعمر مكان الحيوانات . وبالإضافة إلى كل ذلك سبّب الاستعمار كثيراً من الدمار والمآسى عن طريق الحروب الأهلية التى كان يشعلها ويذكيها . وما زالت هذه المآسى مستمرة فى كثير من بقاع العالم دون أن يستطيع أحد أن يضع لها حداً ، لأن الاستعمار ما زال مسيطراً على العالم بشكل مباشر ، أو عن طريق الأدوات التى أوجدها .

غير أن الدول والشعوب التى استطاعت التحرر بعد نضال عنيد ، تحاول اليوم أن تطالب بتعويضات مناسبة عن الأضرار التى لحقت بها أيام الاستعمار . إلا أنه مع الأسف ، نجد بأن المطالبة بهذه التعويضات تتوجه إلى المحافل الدولية والمنظمات الدولية ، وفى مقدمتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وهذه المؤسسات لن تستجيب لتلك المطالب المحقة ، لأن الاستعمار هو الذى أوجدها كغطاء شرعى لتصرفاته ، لا سيما مجلس الأمن الذى يملك وحده فقط حق النقض لكل قرار يمس بمصالحه ، فالولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها يتزعمون هذه المحافل ويرفضون الاعتراف بمسؤولياتهم عن المآسى والجرائم والسرقات التى تمت أثناء فترة الاستعمار ، وخاصة أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية .

لذلك فمن العبث المراهنة على المحافل الدولية الرسمية فحسب فى إحقاق الحق والتعويض لصاحب العلاقة . والحل

الوحيد فى إظهار حقوق العالم المستعمر وفرض العقوبات على المستعمر هو التوجه إلى ضمائر القوى الحيّة فى العالم أجمع ، وخاصة القوى المناضلة من مفكرين وكتّاب وأساتذة جامعيين وصحافيين شرفاء للقيام بحملة عالمية ، وخلق رأى عام دولى يطالب بوجوب محاكمة المستعمرين وتجريمهم ومعاقبتهم . كما حدث بالنسبة لألمانيا الغربية حيث تحملت وزر ألمانيا النازية ، مع العلم أن أغلبية أفراد الشعب فى ألمانيا الغربية كانوا يقفون ضد النازية . غير أن تحميل ألمانيا الغربية هذا الوزر ، وهذه المسؤولية ، يجب أن يشكل سابقة تاريخية يحتذى بها لمعاقبة الدول المستعمرة على الجرائم التى ارتكبتها بحق الشعوب . إذ لا بد من دفع الثمن مهما طال الزمن . وعملية التغريم هذه إذا طُبقت من الممكن أن تشكل رادعاً فى المستقبل للدول التى تفكر باستعمار غيرها وسلب خيراتها . وكذلك المطالبة بإلغاء حق النقض .

أما العقاب فإنه يجب ألا يقتصر على الجرائم والتدمير ، بل أيضاً على السرقات والتى تظهر بوضوح إلى جانب سلب الخيرات الاقتصادية والمادية . سرق الاستعمار الآثار والمخطوطات والمتاحف الاستعمارية ، فلا بدّ من المطالبة هنا بإرجاع هذه المخطوطات وهذه الآثار إلى أماكنها الأصلية .

أخيراً ، لا بدّ من معاقبة الذين ساعدوا الاستعمار فى تدعيم مواقعه داخل كل دولة . ومعاقبة هؤلاء يجب أن تكون أشد

وأقسى . فهذه الفئة من العملاء الذين باعوا أنفسهم وبلادهم وأهلهم للشيطان ، لا بدّ للثـورة من محاسبتهم بـاعتبارهم مجرمين آثمين ، وقصاص هذه الفئة ضرورة ثورية قصوى لا يمكن التخلى عنها لسببين : أولاً : كي يدفع هؤلاء ثمن ما ارتكبوا بحق أوطانهم وشعوبهم ، وثانياً : كى يكونوا أمثولة لضعيفى النفوس الذين قد تحدثهم أنفسهم بالتضامن مـع المستعمرين فى المستقبل .

إن هذه العقوبات أبعد ما تكون عن روح الانتقام، بل على العكس ، إنها عقوبات إنسانية مشروعة ترمى إلى إحقـاق الحق ، وتصحيح أوضاع كانت غير طبيعية ، وجزاء عادل على جرائم ارتكبت بحق الشعوب دون مبرر .

الفصل السادس

المـواقف

أولاً ـ تجاه قضايا العالم المصيرية
ثانياً ـ تجاه حركات التحرير
ثالثاً ـ الموقف من القضايا الدولية
رابعاً ـ تجاه مخططات الاستعمار



الـمـواقـف

الاستعمار حركة توسعية شرسة تريد الهيمنة والنفوذ ، وتهدف إلى استعباد الشعوب وكبت حريتها . فهى تسعى جاهدة بجميع أنواع صور الاستعمار وأشكاله ، أن تفرض إرادتها بمختلف الأساليب على جميع الدول التى تنشد الاستقلال والتحرر من سيطرة الأجنبى . وفى سبيل ذلك كان مبرر قيام الثورات وانتشار الانتفاضات الجماهيرية ، فارتفعت الأصوات عالية فى المحافل الدولية تطالب الدول الكبرى بالكفّ عن التدخل فى شؤونهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية . ومن هنا انبثق الموقف الوسط الذى طرح شعار : « نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا » . فهذا الخط لا يعنى العداوة لأى كان أبداً ، بل المصادقة لكل من يمدّ يده

للتعاون بعيداً عن نزعات النفوذ والسيطرة والاستغلال ، وهذا التوجه يخدم روح التعاون والتبادل بين شعوب الأرض من أجل التقدم الإنسانى والسلام العالمى .

وهنا ينبغى القول بأن الاستعمار ليس مرتبطاً بموقع جغرافى محدد ، بل يمكن أن يفد إلينا سواء أكان من الشرق أم من الغرب . وهذا الوضع دفع مجموعة من الدول إلى إعلان عدم تبعيتها إلى هذا الطرف أو ذاك . وعلى باقى الدول التى تريد الانسحاب من الارتباط مع التيار الشرقى أو التيار الغربى أن تقف عند الخط الأوسط الذى على أساسه تبلورت فكرة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز والتعايش السلمى بين الشعوب حيث تمثلت هذه الأفكار بمجموعة : « دول عدم الانحياز » . وهو موقف يعبّر تعبيراً حقيقياً عن الحياد الإيجابى وعدم الانحياز .

وفى مطلق الأحوال ، فإن القوى الرجعية والصهيونية والاستعمار العالمى لا تزال تتضافر جهودها وتتجمع وتتكالب ، للتمكن من فرض سلطانها على الشعوب التى تواجه تحديات المستعمرين بقوة . وتعطى بذلك الدروس القاسية للمستعمر الذى تغافل وتجاهل وتناسى أن إرادة الشعوب لا تقهر وبأن للظلم نهاية . وإن دولة الباطل إلى زوال ، أما دولة الحق فباقية إلى الأبد .

وقد مارست هذه الشعوب حقها فى تقرير مصيرها فمنها من

انتصر ،ومنها ما زال يخوض المعارك بضراوة من أجل استرداد الحق السليب ، وتقرير المصير ، لأن الشعوب لا تـرضى بالتقوقع ، وأن تكون محرومة من تحقيق ذاتها .

إن من حق الإنسان أن يؤدى دوره فى نطاقه المحلى والإنسانى والعالمى ، حتى ولو كان هذا الموقف سبباً فى تعرضه لمشاكل كثيرة ، وكلفه ذلك خسائر جسيمة . لأنه بذلك يكون قد سجّل فى صفحات تاريخه المجيد بأنه أدّى الدور الصحيح ، واتخذ المواقف الصحيحة فى دفاعه عن قضية الحرية والسلام فى العالم . هذا الموقف يؤدى إلى نشر قضية العدالة والحرية لكل الشعوب المضطهدة ، ويكون موقف هذا الشعب نموذجاً للشعوب الأخرى ، فكم من ثـورة حفزت جماعات وشعوباً على الثورة والقيام بدورها الـوطنى لطرد المحتل ، بل إن التضامن بين الثورات هو أمر ضرورى وقد قامت الأمثلة الكثيرة عليه .

من هنا نجد أن هذه القضية تتمحور حول عدة مواقف نوضحها على الشكل التالى :

1 ـ الموقف تجاه قضايا العالم المصيرية :

يلاحظ المراقبون للأحداث ، أن هناك عـديداً من القضايا التى تعصف بهذا العالم الملىء بالصراعات المحلية والإقليمية

والدولية ، والتى قد تؤدى فى حال تفاقمها فى المستقبل ، وفى وقت لا يمكن تحديده على وجه الدقة ، إلى نشوب حرب عالمية ثالثة يشعل فتيلها تزاحم الدول الكبرى الدائمة العضوية فى مجلس الأمن الدولى ، من خلال حقها المزعوم فى اتخاذ قرار ما يسمى : حق النقض ، أى « الفيتو » ، على القرارات الدولية . هذا الحق الذى منحته الدول الكبرى لنفسها ، اخترقت به حقّ باقى الدول والشعوب فى التمتع هى الأخرى باتخاذ هذا القرار .

من هنا استغلت الولايات المتحدة الأميركية ، التى تتزعم الاستعمار الحديث ، هذا الحق لتبسط نفوذها وتحكم سيطرتها على مناطق العالم كافة ، وعلى حساب الدول الأخـرى ، وحتى على الدول التى تشاركها العضوية فى المجلس المذكور مستغلة فى ذلك ضعف الدول الصغيرة وشعوبها المستضعفة .

والنتيجة التى أفرزها هذا التزاحم الدولى عبـر التاريـخ القديم والحديث ، أدت إلى تحـول العالم إلى قـارات ، وأصبح لكل قارة مجموعة دول تتميز بشعوب وحدود ولغات وثقـافات مختلفـة . ولم يكتف الاستعمار بهـذا الحد من التجزئة ، بل أوجد لكل دولة مشاكل حدودية مع جاراتها ، كما تسبّب أيضاً فى تشريد شعوب أخرى من أرضها وديارها .

ومن هنا وجب علينا لزاماً استعراض هذه القضايا واتخاذ المواقف الصحيحة منها ، والموقف الصحيح من كل قضية

على حدة ، حتى نستطيع بعد ذلك أن ننظر إلى العالم نظرة مبنية على أسس ، ومبادىء ثابتة وصحيحة تنسجم مع الطبيعة الإنسانية التى جُبل عليها الإنسان المعاصر .

ومن هذه القضايا التى تتسم بالأهمية القصوى : قضية فلسطين ، أى قضية الشعب العربى الذى طُرد من دياره ، أخرجته الحركة الصهيونية العالمية والمؤامرة الاستعمارية من أرضه منذ عام 1948 ، وحل مكان هذا الشعب العربى أناس متعددو الانتماء ومختلفو الأجناس ، جاءوا من شتى بقاع ودول العالم ليؤسسوا على أرض فلسطين كياناً ودولة أطلقوا عليها إسم « إسرائيل » بدلاً من « فلسطين » التى هى الوطن الحقيقى للشعب العربى الفلسطينى ، حيث يعيش العرب منذ آلاف السنين .

أوجد هذا التوطين الصراع العربى - الصهيونى ، وما زال هذا الصراع متواصلاً من أجل تحقيق عودة الشعب الفلسطينى إلى أرضه .

وترك هذا الصراع العربى - الصهيونى بمرور الزمن آثاراً بليغة العمق فى مواقف الدول ، وشمل ذلك جميع الدول وانقسمت بين مؤيد للقضية الفلسطينية العادلة ، أو متعاطف معها ، وبين رافض للحق الفلسطينى ومؤيد للإسرائيليين المغتصبين . وتبنت الموقف الرافض للحق العربى والمؤيد

للأسرائيليين ، الولايات المتحدة الأميركية التى اعتبرت القضية الفلسطينية لا تعدو كونها قضية لاجئين . فقامت المجموعة الدولية ، التى حذت حذوَ الولايات المتحدة الأميركية ، بتبنى هذا الموقف السياسى فى جميع قراراتها . فى حين تمثل الموقف العربى الصحيح والسليم ، تجاه قضية الشعب الفلسطينى ، بأنه أخذ بالاعتبار الوضع الذى كان عليه الشعب الفلسطينى قبل الاحتلال ، والمتمثل بكون اليهود الشرقيين والمسحيين والمسلمين كانوا ينضوون جميعاً تحت مظلة عربية واحدة ، كل يتمتع بحقّه الطبيعى فى الحياة الحرة الكريمة ، دون المساس بحق كل طائفة دينية فى التعبير عن شعائرها الدينية الخاصة .

وشكل هذا الموقف ، الذى سعى العرب إلى تحقيقه ، الحلّ الذى بدونه يستحيل أن يعود السلام إلى ربوع فلسطين . وأى رفض لهذا الموقف العربى ، يضطر العرب لاستخدام القوة كسبيلٍ وحيد مهما ترتب على هذا الموقف من تهديدات وإنذارات تُطلقها الحركة الصهيونية العالمية ، ومن يساندها من الذين كرسوا الاحتلال وسببوا تشريد الشعب العربى فى فلسطين سنة 1948 .

وفى الوقت الذى يتغلغل فيه الاستعمار ، بقيادة الولايات المتحدة الأميركية فى منطقتى الشرق الأوسط والأدنى ، فإنه يجرى عملية أخرى لتبديد القضية الفلسطينية وإضاعتها .

حيث تقوم الدول الأوروبية بإيعاز من الولايات المتحدة الأميركية ، بمحاولة ترويض منظمة التحرير الفلسطينية وإجبارها على القبول بمبدأ الاستسلام انطلاقاً من كون منظمة التحرير الفلسطينية هى قائدة نضال الشعب الفلسطينى . ولكن القوة الثورية الفعلية لا تنخدع بالتصريحات الزائفة التى تصدر عن دول أوروبا الغربية بخصوص قضية فلسطين ، بل إن القوة الثورية تتخذ حيال القضية الفلسطينية الموقف السليم والصحيح بتهيئة الرأى العام المحلى والإقليمى والدولى ، على الصعيدين العسكرى والسياسى من أجل عودة فلسطين إلى سابق عهدها .

ومن القضايا المصيرية الأخرى قضية تحرير القارة الإفريقية التى ما فتىء الاستعمار الغربى يعمل جاهداً على ترسيخ دعائم أنظمة الميز العنصرى وتثبيت أقدامها إلى الأبد على حساب السكان الأصليين فى القارة الإفريقية ، حيث برزت مشاكل سبّبت مآسى عديدة للدول الإفريقية ، كتلك المأساة التى يتعرض لها شعب جنوب إفريقيا وإقليم ناميبيا ، إضافة إلى الشعوب المجاورة فى موزمبيق وزامبيا وبتسوانا، التى تتعرض لهجمات عسكرية بربرية بصورة مستمرة . وطالت هذه المشاكل جميع الجزر المحيطة بالقارة الأفريقية ، حيث ما زال العنصريون البيض فى جنوب إفريقيا يحكمون البلاد تاركين سكان البلاد الأصليين من الشعب الإفريقى يعيشون فى أسوأ الأحوال .

ويقـوم هؤلاء الحكّام من العنصـريين بسنّ التشريعـات والقوانين التى تخدم مصالح وأهداف العرق الأبيض ، واضعة العرق الأسود فى منأى عنهم ، فى القرى والمناطق الريفية ، منفذين فى حقّ المواطنين السود أقسى الإجراءات التعسفية وأعنفها ، مما أمّن للبيض التوغل فى أجهزة الدولة والسيطرة على مراكزها الاقتصادية والاجتماعية . تحت ستار تمتعهم بـالحضارة والثقـافة ، وأدت هـذه التحديـات فى ممارسـة الإجراءات العنصرية إلى مضايقة السكان الوطنيين . فاندفعوا إلى المقاومة والثورة اللتين كانتا لهما الأثر الفعال فى امتدادهما إلى جميع الدول المجاورة لدفع شعوبها إلى المطالبة بالتحرير وانتزاع السلطة من أيدى العنصريين البيض .

ونتيجـة لهذا التحـرك المشـروع تصلب المـوقف ضـد المستعمرين فى إفريقيا ، وهبّت الثورة الشعبية فى كل بقعة من بقاعها .

وهنا لا بدّ من القول بأن عملية احتضان الثورة فى الدول الأفـريقية المتحـررة ، ومدهـا بـالـدعم المـادى والمعنـوى وتسهيل ، كل أسباب النجاح لها ، يشكل بالنسبة إلينا التزاماً سياسياً ، لانتمائنا الجغرافى إلى هذه القارة ، حيث استطاع شعب زيمبابوى بفضل دعمنا من طرد العنصريين البيض ، واستعادة حريته وسلطته . وقد ساعد هذا العمل على استمرار الثورة ضد الأنظمة العنصرية الأخرى .

وتعصف بالقارة الإفريقية قضية أساسية أخرى هى قضية تشاد ، التى يريد مفتعلوها أن يجعلوا منها قضية دولية ليسهلوا بذلك فتح الباب من جديد أمام الاستعمار فى القارة الإفريقية ، حيث تتواجد القوات الاستعمارية « الفرنسية » بقصد دعم وتثبيت حكومة عميلة لها ، وبالتالى ضرب مقاومة الشعب التشادى للاستعمار ، والتى تتمثل بجبهة التحرير الوطنى المعروفة بإسم « فرولينا » ، وقد استطاعت هذه الجبهة الوطنية بعد صراع طويل إسقاط الحكم العميل فى أنجامينا والوصول إلى الحكم . وقد حاول الاستعمار الفرنسى ، بعد هذا التحول فى المجريات السياسية والعسكرية ، إذكاء التناقضات بين فصائل جبهة التحرير الوطنى التشادى ، فأدى ذلك إلى تفرد أحد الأطراف بالسيطرة على السلطة ، بدعم ومساندة من القوى الاستعمارية . مما شكل السبب الرئيسى لإشعال الحرب الأهلية من جديد .

كل ذلك أدى بتطوره إلى تشابك المسألة التشادية . فتدخلت الولايات المتحدة الأميركية إلى جانب القوات الاستعمارية الفرنسية المتواجدة على الأرض التشادية . وأدى هذا العدوان المزدوج إلى التأثير على مواقف الدول الإفريقية وخاصة تلك الدول المجاورة لتشاد ، فاختلفت فيما بينها تجاه الصراع فى التشاد ، بالرغم من أن جبهة التحرير الوطنى التشادية (فرولينا) ، تحظى بتأييد منظمة الوحدة الإفريقية .

لكن قوى العمالة المرتبطة بالاستعمار الغربى حالت دون وصول جميع فصائل المقاومة الأخرى إلى السلطة . مما يبرر وجهة النظر القائلة ، بأن فصيلاً واحداً لا يمكن أن يحكم الشعب التشادى كله . وأن الفصائل الأخرى التى هى خارج السلطة لا بدّ لها من أن تشترك فى الحكم أيضاً . ويواكب هذا العمل انسحاب جميع القوات الأجنبية من الأراضى التشادية ، لكى تنتهى الحرب الأهلية ويستتب الأمن فى التشاد .

إن أية محاولة فاشلة لإخفاء حقيقة التدهور الخطير الحاصل فى التشاد (سواء تمثلت هذه المحاولة عن طريق الاعتداء على حقوق دولة مجاورة لتشاد أو عن طريق طمس حقوق الشعب التشادى) فلن يترتب على ذلك سوى الاستمرار فى دعم حكومة الائتلاف الوطنى والتحالف معها ، كونها تشمل الفصائل التى تمثل كل الشعب التشادى . هذه الحكومة التى تأسست بناءً على اتفاقية منظمة الوحدة الأفريقية فى العاصمة النيجيرية لاغوس .

ومما لا شك فيه بأن أمن تشاد يؤثر تأثيراً حقيقياً على الدول المجاورة ، ولا سيما ليبيا ، انطلاقاً من الواقع المتمثل بكون أجزاء كبيرة من الأراضى الليبية المتاخمة لحدود التشاد قد تتعرض للغزو الاستعمارى . كما أن شمال تشاد يمثل عمقاً تاريخياً للعرب فى إفريقيا ، والذى يختصر بعبور قوافل الإسلام هذه الأراضى منذ قرون سحيقة . وقد حتّمت هذه

المعطيات التاريخية النظر إلى هذا التراث بمنظار مشترك ، فالمسؤولية الكبيرة والمشتركة تحتم التغلب على هذا الواقع الشاذ وشق الطريق نحو المستقبل الأفضل .

يضاف إلى هذا الواقع الذى أتينا على ذكره منذ قليل ، وجود جزر إفريقية واقعة فى المحيط الهندى والمحيط الأطلسى ، تحيط بالقارة الإفريقية ، ويحاول المستعمرون القدامى من الإنكليز والبرتغال والفرنسيين إخفاءها وإبعادها عن ساحة الصراع ، بدافع عدم المطالبة باسترجاعها من أى طرف كان ، باعتبارها جزء لا يتجزأ من القارة الإفريقية ، كجزيرة (ريونيون) الخاضعة لفرنسا ، وجزر (ماديوا) التابعة للبرتغال ، وجزر البيرا وهرانك التابعتان لبريطانيا . فلا بدّ من تحرير هذه الجزر وإعادتها إلى إفريقيا بعد نزع السيطرة الاستعمارية عنها ، بحيث تستعيد حريتها وتحظى باستقلالها شأنها فى ذلك شأن جزر القمر ومدغشقر وموريشيوس وسيشل .

إن العمل الذى تقوم به لجنة التنسيق لتحرير إفريقيا ، والمنبثقة عن منظمة الوحدة الإفريقية ، والتى تجسد الروح المعنوية العالية لهذه القارة وتعبر عن تضامنها فى وجه الاستعمار وعملائه ، هذا العمل الدؤوب دفع أحرار إفريقيا إلى مقاومة المستعمرين عن طريق إنشاء حركات تحرر إفريقية

انطلاقاً من كون وحدة القارة الإفريقية لا تتحقق إلا بعد تحرير إرادتها من نير الاستعمار الغربى .

من هنا ، يتوجب على الأفارقة نسف كل التبريرات الأمريكية والأوروبية التى تسمح للمستعمرين الجدد بالتدخل فى إفريقيا . بحيث يكون بمقدورهم مواصلة تحرير القارة الإفريقية واستكمال هذا التحرير ، وتقريب يوم وحدتها من أجل تحقيق الانتصار النهائى للإنسان الأفريقى على القوى العنصرية ، والاستعمار بأشكاله المتعددة ، وذلك تحت شعار إفريقيا للأفريقيين . وليس لهذه القارة السوداء حلف إلا حلفها مع ذاتها ، بما تمثله مجتمعة من قيم إنسانية وموارد طبيعية ذات قدرات اقتصادية متميزة .

2 ـ الموقف تجاه حركات التحرير :

سببت السيطرة الاستعمارية المباشرة على الشعوب والهادفة إلى خلق أنظمة عميلة تتابع ممارسة الدور الاستعمارى فى قهر الشعوب واستعبادها وسلب ثرواتها، العديد من المآسى لهذه الشعوب وجعلتها محرومة من أبسط مقومات الحياة حيث أصبحت تعانى من جميع أشكال الفقر والجهل والتشرد.

من هنا كانت مقاومة الاستعمار بكل الوسائل ضرورة لا ريب فيها وذلك لخلق الشعور بأهمية احتدام الصراع معه وبالتالى حتميته. وأصبح من متطلبات هذا الصراع التضامن

والتأييد والبحث عن شتى الـوسائـل المؤدية إلى التحـرير والاستقلال.

وفى خضم هذه المواجهة ظهرت حركات وأحزاب اختلفت فى ثوريتها وتقدميتها ومعارضتها، من قطر إلى قطر آخر. حيث ظهرت المعارضة من داخل الشرعية الـدستوريـة القائمـة، ومعارضة أخرى من خارج نطاق الشرعية الدستورية. إضافة إلى ظهور حركات وأحزاب ذات أيديولوجيات قومية وأخرى يسارية، على درجات متفاوتة فى انتمائها اليسارى، سواء أكان ذلك فى التطرف أم فى الاعتدال.

إن هذا التنوع فى التنظيمات والحركات السياسية، وكذلك الانقسام الحاصل فيها دليل على أن الذهنية ليست واحدة، وبالتالى فإن نسبة الانتماء ليست واحدة أيضاً، كما أن الفكر لا يشكـل وحدة فى الهـدف، والمثال على ذلـك أن العـدو الاستعمارى، يدخل بين هذه الحركات المتعارضة ليستعدى جزءاً منها ضد الجزء الآخر. وهذا يعنى أن العدو، ومن خلال تعدد الحركات يرسم الخطط لتحقيق مآربه. وهذا هو المغزى لتعدد وانقسام الحركات.

هذه التأثيـرات على الحركـات الوطنيـة من الخارج أو الداخل، سواء كانت صديقة أم عدوة، سببت الضرر الكلى للحركات نفسها وبالتالى لمستقبل شعوبها. والدليل على ذلك

وجود أقطار لم تتمكن من تحرير نفسها لانقسام أبنائها على بعضهم نتيجة لإنتماء بعضهم إلى نظرية يمكن ترقيمها بالرقم 1، فى حين يعتنق بعضهم الآخر نظرية رقمها «10». وفى حين يتخذ بعضهم لوناً عقائدياً أصفر، يتخذ بعضهم الآخر اللون العقائدى الأحمر والأبيض. مما يؤدى فى نهاية المطاف إلى إضعاف حركة التحرر ويبعثر الجهود التى كان يجب أن تتوحد وتتضافر. إن تبعثر الجهود يؤدى إلى الاقتتال والصدام بين أبناء القطر الواحد والبلد الواحد. وهذا ما نجده فى إفريقيا الجنوبية، حيث توجد عدة حركات ترفع كلها شعار التحرير، ولكن بدل أن تتوحد نجدها تقاتل بعضها بعضاً. فى الوقت الذى كان عليها أن تتسم بالعنف والقوة أكثر من أى مكان فى العالم نتيجة التسلط العنصرى فى هذه البقعة من بقاع المعمورة.

وبناءً على ما تقدم، يصبح من الضرورى على جميع الحركات أن تناضل من أجل هدف واحد مع اختلاف أساليبها، وأن تضع ميثاقاً موحداً يتم الاتفاق عليه ليشكل بالتالى مساراً تهتدى به جميع الحركات.

إن الاشتراكية مثلاً قد تفرز حركات متباينة إلى حدٍ ما، لكنها ليست بالضرورة متناقضة، بل التناقض الأساسى يكون بين القوى التى يجمعها الميثاق وبين القوى الحكومية الرجعية المرتبطة بقوى الاستعمار الهادفة إلى إعاقة قيام الإشتراكية.

وفى حال وجود تعارض ما بين قوى التحرر نفسها فإن زواله لا بد أن يكون سريعاً مع تطور النضال الشعبى الجماهيرى ، أن النضال بحد ذاته يزيل تلك التناقضات الجزئية ويقرب وجهات النظر.

وهنا لا بد من الإشارة بوضوح إلى أن ربط الجسور مع حركات التحرير فى العالم يشكل ضرورة نضالية وحتمية، بغية توسيع جبهات المعارضة، وبالتالى تلاحمها. لأن قيادات هذه الحركات مسؤولة من الناحية المعنوية عن عملية التحرير، وهدفها الأساسى هو استعمال نار الثورة لإسقاط الاستعمار وقواه العميلة والرجعية. وكذلك القضاء على جميع مؤسساته المهيمنة على الشعوب. لأن كل من يناضل فى سبيل الحرية والاستقلال يعتبر نضاله شرعياً ويتوجب دعمه وتهيئة السبل والإمكانيات التى تعينه وتساعده على تحقيق أهدافه.

أما المساعدات فإنه يجب أن تأتى بعد التأكد من أن فوائدها ستكون أكبر من مساوئها. وفى هذا المضمار لا بد من وجود فرق كبير بين مساندة حركات التحرير وقضاياها العادلة فى الكفاح من أجل حرية شعوبها واستقلالها ، وبين دعم الإرهاب الذى تمارسه مجموعات أخرى ليس لها صلة بنضال الشعوب من أجل التحرير والاستقلال.

ومن البديهى القول، بأن القضايا التى ينبغى دعمها قطعاً

هى قضايا تلك الشعوب التى تريد أن تتحرر من الاستعمار بجميع أشكاله، وخاصة بعد أن اتضحت الرؤية بأن هناك معارضة حقيقية تتبنى قضايا عادلة بصرف النظر عن اعتناقها لأية نظرية كانت. فالقضية الايرلندية مثلاً تعتبر قضية عادلة، ينبغى الالتزام بمساندتها سياسياً ومعنوياً لكى تصل إلى مستوى يمكنها من تفجير الثورة ومقاومة مخططات الاستعمار البريطانى.

إن دعم وتأييد ومساندة حركات التحرر مسألة حيوية وضرورية فى سبيل الوقوف بوجه مخططات الاستعمار، كذلك فإن على حركات التحرر أن تقضى على الخلافات فيما بينها لكى لا ينفذ ويدخل الاستعمار من خلال هذه التناقضات فيفجر الخلافات ويجعل نفسه طرفاً فيها، لكى يوظف الخلافات لمصلحته ويفسد قضية التحرير الوطنى، بوقوفه إلى جانب أحد أطرافها بحيث يخرج هذا الطرف من دائرة التحرير، فيضعف النضال ضد الاستعمار وأعوانه فى الداخل.

3 ـ الموقف من القضايا الدولية :

فى إطار السياسة الدولية التى تنتهجها كل دولة من دول العالم ، أصبح يحتم على هذه الدولة الانتماء إلى المنظمات الدولية بغية تأكيد وجودها كدولة لها مقوماتها الأساسية وهياكلها التنفيذية الخاصة بها والتى تؤهلها للتعامل مع بقية الدول.

ومن هذه المنظمات التى نشير إليها هنا، منظمة الأمم المتحدة التى جسدت هذا التقارب، حيث أفسحت المجال أمام كل دولة لتحصل على عضوية كاملة فى هذه المنظمة، فجعلت كل الدول الأعضاء متساوين فى الحقوق والواجبات من الناحية الشكلية وأوحت هذه المنظمة بأنها تنتهج سياسة سليمة لا غبَار عليها فى علاقاتها مع الدول.

ولكن السياسة الفعلية لهذه المنظمة، ونتيجة للمواقف التى انتهجتها فعلياً، انقسم العالم إلى معسكرين الأول شرقى، ويضم دول المعسكر الشرقى أو الاشتراكى وفى مقدمتها الاتحاد السوفياتى ودول أوروبا الشرقية، والثانى غربى ويضم بالدرجة الأولى الولايات المتحدة الأمريكية ووراءها بريطانيا ودول أوروبا الغربية.

إن هذا الانقسام أوجد قوة ثالثة اصطلح على تسميتها باسم دول العالم «الثالث»، وكان لا بد من قيام هذه القوة الثالثة التى تجد نفسها خارج الكتلتين أو المعسكرين الكبيرين. ويقصد بمصطلح «العالم الثالث» الدول النامية ذات المصالح المرتبطة بالمعسكر الشرقى أو المعسكر الغربى، حسب اتجاه كل دولة من الدول وحسب سياسة حكومتها.

وبالعودة إلى الوقائع التاريخية، والتى ما زالت تعيد نفسها، نلاحظ أن الاستعمار الغربى بزعامة الولايات المتحدة الأميركية

لا يـزال يمارس الاعتداء على دول العالم الثالث، كما كرّس نهجاً سياسياً تمثل بعملية الاحتواء للقـرار السياسى داخـل المنظمات الدولية وخارجها، خاصة فيما يتعلق بقارات آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، وحاول من خلال هذا النهج السيطرة والتحكم بالمياه الدولية، وكذلك بالمياه الإقليمية لبعض الدول التى رفضت سياسته، وأخذت تنتهج نهج الاستقلال.

وبسبب الوضع المأساوى لبعض الشعوب التى ما زالت تعانى من ويلات الاستعمار يلجأ بعضها إلى بعضها الآخر، وخاصة تلك الشعوب غير المـرتبطة بـالاستعمار وبقـراراته السياسية، من أجل خلق وضع جديد يساعد على التعامل فيما بينها بغرض الوقوف أمام الدول صـاحبة السيـادة المطلقـة كالولايات المتحدة الأميركية والعمل على اتخاذ موقف موحد تجاهها .

كما أصبح لهذا الوضع الجديد، على المستوى الدولى، منطلقات أساسية ومبادىء سامية تهدف جميعها إلى محاربة الاستعمار والرجعية والعنصرية والأمبريالية العالمية من خلال المنظمات الشعبية والدوليـة بغرض تـدعيم السلام الـدولى والعمـل من أجل إقـامة العـدل الاجتماعى على الأرض، وبالتالى القضاء على الاستغلال من أجل الوصول إلى دحر الاستعمار السياسى والاقتصادى والاجتماعى، آخذة بالاعتبار أن الدول الاستعمارية لا تريد الانفراج إلا على مصالحها،

وعلى حساب الشعوب الأخرى، كما أن تطلعاتها تختلف عن تطلعات الدول الأخرى وينطبق الأمر بطبيعة الحال على الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا من بين الدول الاستعمارية.

وفى هذا الإطار تعددت القضايا المحلية والإقليمية والدولية، وأصبح لزاماً إتخاذ مواقف مبنية على أسس سليمة وواضحة تجاه قضية الحرية فى كل مكان من العالم دون تمييز بين أسود أو أبيض، أو بين شرقى أو غربى. وهذه الأسس يمكن تلخيصها على الوجه التالى ومن خلال النقاط التالية:

- احترام الإنسان كإنسان، بغض النظر عن الجماعة التى ينتمى إليها، أو إمكاناته أو قدراته.
- رفض الاعتداء مهما كانت أسبابه ومبرراته.
- إرساء دعائم التعاون المشترك بين الدول قاطبة دون تمييز أو تفريق، واتباع سياسة التكافؤ والمساواة.
- إرساء مبدأ حرية الشعوب، التى هى جزء من حريتنا. بهدف التأكيد على حرية كل شعب مهما كان.
- تبريد مناطق التوتر فى العالم وتحييدها عن الصراعات.
- ارتباط الدول المحايدة بعضها ببعض، والابتعاد عن الارتباط مع دول متورطة فى أحلاف عسكرية.

- تقديم التسهيلات اللازمة للدول الحليفة، والعمل على إقامة العديد من النشاطات الاقتصادية والاجتماعية المشتركة.

- احتضان ودعم الثورات التى تحدث فى العالم من أجل التخلص من كل ألوان وأشكال الاستعمار.

- العمل على إشاعة جو من التشاور وتكثيف الاتصالات والزيارات المتبادلة بين جميع الدول والشعوب المغلوب على أمرها بغية تفويت الفرصة على الاستعمار، والقضاء على رواسبه المتمثلة بالعداوات المصطنعة بين الشعوب.

- إعطاء الأولوية للشعوب والدول المعتمدة على الأسس والمبادىء المذكورة أعلاه فى تعاملها الدولى.

- الاستمرار فى دعم شعوب العالم من أجل التضامن فيما بينها لنصرة المظلومين والمضطهدين والمستضعفين فى الأرض.

ومن خلال هذه المبادىء يتجلى سمو الموقف وسلامته الحقيقية التى تنشدها الإنسانية جمعاء.. حيث لا مبرر لوجود ظالم ومظلوم أو جائع ومحروم.

4 - الموقف تجاه مخططات الاستعمار :

اتخذ التآمر الدولى على الشعوب مسارات مختلفة، حاول

من خلالها وضع خطط إعلامية واقتصادية وعسكرية ونفسية تهدف إلى إضعاف إرادة هذه الشعوب وكبت حرياتها، وذلك بتآمره مع الرجعية والصهيونية العالمية فى تنفيذ الخطط التى رسمها للعالم، والتى أفرزت أحلافاً واتفاقيات هدفت بدورها إلى تجزئة العالم إلى مناطق نفوذ، وفق استراتيجيات جديدة، جسدت الاستعمار القديم، رغم محاولة الاستعمار الحديث ارتداء أزياء جديدة وعصرية تتفق مع (موضة) القرن العشرين، ومن هذه المشاريع والمخططات نذكر:

- إضعاف مشاريع التنمية وتحويل ثروات المجتمع لإنفاقها على الرواتب والمكاتب وتشييد القصور.
- العزل الكامل للشعوب عن بعضها بغية إبقائها ترزح تحت سيطرة عرش عميل أو حكومة عميلة تحتمى بها.
- قتل روح وكرامة وعزة الشعوب والتغرير بها.
- طرح حلول لقضايا تهدف إلى خدمة أغراضه.
- إرسال الأسلحة والمرتزقة إلى مناطق نفوذه وبؤر التوتر فى العالم.
- الانتقاص من حرية كل دولة يقوم باحتلالها عن طريق التمييز بين الأجناس والتفرقة فى الدين والقومية.
- كسب الأصدقاء بغرض كسب مناطق نفوذ تساعده على

التقدم، بحيث يشكل هذا التقدم حاجزاً بينه وبين منافسيه.

- افتعال المشاكل الدولية وإيجاد التبريرات اللازمة للتمهيد لإقامة أو إحلال قواعد عسكرية تشكل منطلقاً له فى عدوانه، واستخدام طائراته الحربية أو التجسسية.

- استثمار تواجد الشركات فى الدول النامية وتسخيرها لأغراضه الاقتصادية ولاسيما الشركات النفطية بقصد عرقلة مسيرة الشعوب وتحويل أسواقها إلى مراكز استهلاكية لمنتجاته المختلفة.

- إحباط كل المحاولات الهادفة لتوحيد الشعوب والعمل على تجزئتها ومواصلة زحفه بشتى الطرق والوسائل النفسية والحربية والسياسية والاقتصادية.

- وضع المناهج الاستعمارية لمسخ الشخصية الوطنية والتشكيك بها وبالتالى تحجيمها.

ويتطلب الوصول إلى إحباط هذه المخططات وكشفها وتفويت الفرص على المستعمر، أن تتصف الشعوب بالوعى الكامل والانتباه الشديد حتى تكون مستعدة لخوض المعركة ضده على جميع الجبهات. وعلى الجماهير أن تتحمل مسؤولياتها لكى تحقق النصر النهائى الشامل لكل مرافق حياتها الاجتماعية، لأن الاستعمار يدرك تماماً خطورة الثورة على مصالحه وطموحاته الاستعمارية، حيث أثبتت الأحداث

أن المشاريع والخطط الاستعمارية مبنية أساساً على خطأ أو وهم. أتضح ذلك من خلال المعارك التى خاضتها الشعوب فى عددٍ من أقطار العالم، وخاصة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وإيرلندا، حيث أثبتت هذه الشعوب رفضها العيش داخل حدود أقليمية مزيفة. وقدمت فى سبيل ذلك كثيراً من الضحايا دون تردد، مما دفع الاستعمار لإدراك المواجهة بينه وبين الشعوب من خلال ثورات شعبية، وليس انقلابات عسكرية تقليدية، أو من خلال حكام معزولين عن الشعب لا حول لهم ولا قوة.

وبناءً على ذلك فإننا نلاحظ كيف أن الشعوب تتحرك لتحصين وجودها وللتأثير فى قضايا مصيرية فى العالم. هذه الشعوب هى التى تدرك وتعى مسؤولياتها وتمارسها بحرية ضمن المجموعة الدولية.

أما الشعوب الرازحة تحت حكم وسيطرة مستعبديها ومستعمريها، فإنها لا تستطيع أن تطرح قضاياها فى المحافل الدولية. ولا تحظى بغير التجاهل من المجتمع الدولى والرأى العام العالمى.

كما يريد الاستعمار أن تكون الشعوب تابعة له، وأن لا تنتبه لما يجرى من حولها، وبالتالى فإنه يريد ألا تنطق بكلمة حق فى وجه العالم لتعبّر عن ظلمه. وكذلك يرفض الاستعمار أن

تشهر هذه الشعوب سيف الحق فى وجه الظالمين على الأرض. ذلك أن المستعمرين يعتبرون أن هذه الأرض هى ملكهم وأن كلمتهم هى الكلمة العليا التى لا تُرد.

ولكن الشعب الحر الذى يؤمن بالحق، والذى ثار من أجله، هو الشعب الذى يقف فى وجه الظالمين ويرفض دفن رأسه فى التراب، ساعياً وراء تحرير أرضه شبراً شبراً، وتطهيرها من الاستعمار وقواعده العسكرية. وكذلك تصفية جيوب الرجعية، محاسباً أشد الحساب كل الذين ظلموه أو اضطهدوه أو خدعوه. وتشكل هذه القضية مرحلة حاسمة فى إدارة الصراع من أجل كشف مخططات المستعمرين والتحريض على إجهاضها وإفشالها بشتى السبل والوسائل.

الفصل السابع

دروس وعبر من تجارب الشعوب

أولاً: ضرورة وحتمية وحدة الشعوب
ثانيـاً: رفض الاحتلال والاستيطان
ثالثاً: استرجاع الثروات الوطنية
رابعـاً: قدرة المستعمرين على المراوغة والمناورة
خامساً: مقاومة المستعمرين



دروس وعبر من تجارب الشعوب

لا بـد للشعوب التى خـاضت معارك كثيـرة ، وقـدمت التضحيات الضخمة فى الأرواح والأمـوال مـن أجـل تحررها ونيل استقلالها ، من أن تحاول اليوم استخلاص الدروس والعبر من تاريخها الماضى وتجاربها المريرة مع الاستعمار ، لتكون القاعدة الصلبة التى تنطلق منها فى متابعة نضالها . فالماضى هو جزء من الحاضر مطلوب فى المستقبل ، فإذا لم تحاول الشعوب الاستفادة من تجاربهـا السابقـة وتستخلص الدروس والمواقف ، فإنها سوف تعيق تقدّمها ، خصوصاً أن المعركة مع الاستعمار لم تنته بعد ، بل على العكس ، فإن هذا الأخير لم ولن يترك وسيلة إلا وسوف يستعملها من أجل السيطرة على شعوب العالم .

ففى خلال مرحلة تاريخية سابقة ، ظهرت فى القاموس السياسى الدولى عبارة : « التوازن الدولى » . وهذه العبارة استخدمت خلال حقب تاريخية عديدة لتبرير احتلال المناطق الاستراتيجية فى العالم . وتاريخ البشرية إلى غاية اليوم يُظهر أن موازين القوى هى التى تحدد مسار الشعوب . ولم تنعم البشرية ، بنوعٍ من الاستقرار إلا فى اللحظات التاريخية التى وُجد فيها نوعٌ من التوازن بين القوى على الصعيد العالمى وعلى الصعيد المحلى . لكن تبدّل موازين القوى الذى من الممكن أن ينتج عن اكتشاف علمى جديد أو سلاح فتاك سوف يؤدى إلى حروب جديدة واستعمار جديد . فالقوة التى اكتسبتها أوروبا الغربية بعد الانقلاب الصناعى دفعتها إلى محاولة استعمار جميع الشعوب . والقوة التى اكتسبتها الولايات المتحدة الأميركية ، مع ما أحرزته من تقدم صناعى واقتصادى وعسكرى ، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ، دفع الولايات المتحدة إلى محاولة الاستيلاء على العالم . خاصة وأن هذه الدولة أصبحت أقوى من أوروبا الغربية عسكرياً واقتصادياً وعلمياً . لذلك تحاول الولايات المتحدة اليوم وبكل الوسائل فرض إرادتها وسيطرتها على الشعوب . وكمثال على ذلك ما حصل لألمانيا النازية عندما تسلحت بالقوة فحاولت الاستيلاء على العالم . وبذلك تظهر الحقيقة أو الدرس الأول الذى يجب أن نتعلمه وأن لا ننساه من خلال تجارب الماضى ، وهو أن عملية التوازن العالمى يمكن أن

تختل فى لحظة من لحظات التاريخ . وهذا يعنى أن الأسباب التى أدت إلى نشوء الاستعمار ما زالت قائمة . وخير مثال على ذلك احتلال إيطاليا الفاشية لليبيا ، واستعمار فرنسا لتونس والجزائر والمغرب ، وغزو الولايات المتحدة الأميركية لجزيرة غرانادا ، واحتلال بريطانيا فى الماضى السودان وجنوب اليمن والعراق وفلسطين وغيرها . وهذا يعنى أن الاستعمار يستطيع مرة أخرى ، وبوسائله الحربية المدمرة تقسيم العالم والعودة إلى احتلاله شبراً شبراً وإقليماً تلو الأقليم ، والحديث عن نهاية الاستعمار غير واردة ، طالما أن الدول الاستعمارية ما زالت تملك الإمكانيات للاستفادة من الحالة التى تسمى التوازن الدولى ، لتنفيذ نواياها العدوانية .

من خلال هذه الحقيقة التاريخية ، يمكن أن نستخلص الحقائق التالية : ضرورة وحتمية وحدة الشعوب ، محاولة الاحتلال والاستيطان الاستعمارى ، غاية الاستعمار الاستحواذ على الثروات ، وأخيراً قدرة الاستعمار على المساومة .

أولاً: ضرورة وحتمية وحدة الشعوب:

يثبت التاريخ الضرورة الحتمية لتوحد الشعوب ، إذا أرادت أن تتحرر فعلاً ، وتمنع الاستعمار من العودة إلى بلدانها . والذين يريدون أن يعيشوا داخل دويلات صغيرة ، ويعتقدون أنهم يبنون صولجانات الحكم ورئاسات وعروش ملكية على

حساب وحدة الشعوب وحريتها هم واهمون وخاطئون . إن هذه الدول والعروش تتحول ، أمـام قوة الاستعمـار ، إلى قصاصات ورقية صغيرة وتافهة تتجاذبها الرياح الاستعمارية كما تريد . فالاستعمار لا يصل إلى مبتغاه إلا عن طريق القوة . لذلك يجب علينا أن نعدّ له ما استطعنا من القوة . والقوة تكمن فى وحدة الشعوب كما علّمنا التاريخ . كما أن الضعف والهوان يكمن فى الأقليمية وفى التجزئة . لذلك يجب على كل الشعوب التى تحارب من أجل المحافظة على حريتها واستقلالها عدم نسيان هذه المواقف التى علمنا إياها التاريخ .

ثانياً : القضاء على الاحتلال والاستيطان :

تحرر الإنسان وشعوره بالحرية والعـزّة والكرامـة ، على الصعيدين المادى والمعنوى ، والشعور بإنسانيته الكاملة ، هذا الشعور الذى يميزه عن بقية المخلوقات ، لا يمكن أن يتحقق ويصبح واقعاً ملموساً ومعاشاً ، إلا بعد أن تتخلص الشعوب من الاحتلال الأجنبى . والاستعمار خلال تاريخـه البغيض عمل على السيطرة على الشعوب وعلى إرغامها على القبول بالأمر الواقع ، عن طريق الممارسات الهمجية التى تمثلت بالقهر والاعتقال ومحاولات الإبادة الجماعية للذين يرفضون وجوده ويحاولون مقاومته . إلى ما هنالك من الوسائل والطرق التى يندى لها جبين الإنسانية ، من أجل إذلال الشعوب ودفعها للقبول بالأمر الواقع المفروض .

ومهما تعددت صور الاحتلال وتباينت ، فإن الاحتلال الإيطالى والفرنسى لشمال إفريقيا ، أخذ طابعاً استيطانياً ، حيث وجد المستعمرون شعوباً عزلاً لا تستطيع مقاومة آلتهم الحربية . ولكن بالرغم من ذلك فإن المواطنين حاولوا المقاومة وبوسائل بدائية اقتصرت على بعض البنادق البسيطة . وبعد أن تمت الغلبة للمستعمرين ، أتوا بآلاف الأسر الفرنسية والإيطالية ، وسلبوا الوطنيين متاجرهم وأراضيهم الزراعية ، وهيمنوا على كل النشاطات الاقتصادية . وكذلك صبغوا الثقافة الوطنية بطابعهم الاستعمارى ، وتكررت العملية ذاتها مع بريطانيا فى جنوب إفريقيا .

إلى جانب ذلك ، اتخذ الاستعمار الاستيطانى طابعاً مختلفاً ، حيث تمت هجرة مجموعات بشرية من أجناس مختلفة ومن أقطار شتى إلى بلد معين حيث استوطنوه ، بعد محاولة إبادة السكان الأصليين أو طردهم كما حدث فى القارة الأميركية أو فى فلسطين العربية .

تجاه هذه الأساليب الاستعمارية ، يتضح أن مسؤولية الشعوب كبيرة وتبعات الاستقلال والحرية جسيمة . وأن الشعوب لا تستطيع تحقيق حريتها واستقلالها والقضاء على كل أشكال الاستعمار إلا بعد تضحيات ضخمة ومتصلة . والإعداد للمعركة ضد الاستعمار يلزمها عدة وسائل أهمها إيجاد القوة الكفيلة للوقوف فى وجه الاستعمار . هذه القوة ترتكز أساساً

على حمل السلاح والتدريب عليه ، ثم إشعال الثورة حتى يتم التحرير والجلاء . فبالثورة نصل إلى الحرية . والحرية لا يمكن أن تُحمى إلاّ بالسلاح . وهذا ما أكدته التجارب التاريخية .

ثالثاً : تحرير الثروات الوطنية :

لقد أصبح واضحاً عندنا ومن خلال معاناتنا من السيطرة الأجنبية أن غاية الاستعمار الأساسية تتمحور حول سلب الخيرات المادية للشعوب المستعمرة ، ولا سيما المواد الأولية الزراعية والمنجمية والنفطية . وخلال قرون عديدة قام الاستعمار بعملية نهب متواصلة لشعوب العالم ، مما أدى إلى إفقارها وتجويعها ، وحرمانها من التمتع بخيراتها . فالرخاء والازدهار الذى تعيشه الدول الغربية ليس فى الواقع إلا نتيجة لعملية السرقة التى قام بها المستعمرون على حساب بقية شعوب العالم . لذلك من غير الممكن لدول العالم أن تحقق استقلالها ، وتؤمن رخاء شعوبها إلا إذا توصلت إلى تحرير ثرواتها الوطنية . هذه الحقيقة أصبحت اليوم واقع ملموس فى كثير من البلدان الإفريقية والآسيوية حيث استطاعت بعض البلدان ، بفضل الثورات المتلاحقة والعنيدة ، والعمل الدائب المتواصل من أن تستعيد ثرواتها الوطنية وتحررها من السيطرة الاستعمارية ، خطت خطوات كبيرة نحو الاستقلال الاقتصادى عندما أمّمت شركات النفط الأجنبية ، وألغت الشركات التى كانت تستغل المواد

الأولية. ثم أنها تقوم اليوم باستصلاح الأراضى الزراعية، وإقامة المصانع المختلفة حتى تصل إلى الاستقلال التام وتمنع التدخل الأجنبى بأى شكل من الأشكال. هذه التجارب الرائدة والقناعات الراسخة باستحالة التحرر الكامل بدون تحرير الثروات الوطنية واستغلالها أحسن استغلال يجب أن تشكل عظة تاريخية ومثالاً يحتذى بالنسبة لبقية الشعوب فى العالم.

رابعاً: قدرة المستعمرين على المراوغة والمناورة:

من الدروس المفيدة أيضاً من تجارب الشعوب مع الاستعمار، والتى يجب التنبه لها وأخذ الحيطة والحذر منها. لجوء الاستعمار فى كثير من الأحيان إلى المراوغة والمناورة والمساومة. وهذه الأساليب يلجأ إليها الاستعمار عند عجزه عن إخضاع الشعوب عن طريق القوة، أو عندما تزعزع الثورة مواقعه. فكثيراً ما يعرض المستعمرون المناصب والأموال والمراكز على بعض الأشخاص لإغرائهم. كما يقومون إلى جانب ذلك بتجنيد العملاء والأعوان لخدمة مآربهم الاستعمارية من أجل مواصلة نهب الشعوب واستعبادها. ولكن التاريخ أثبت أن ثروات الشعوب ترفض بكل إباء وشمم تلك العروض المغرضة، وتتخلّى عن المغريات التى يقدمها الاستعمار والتضحية بكل شىء وبالغالى والنفيس من أجل انتصار قضاياها المصيرية. وأما المجموعة التى ضعفت

وجبنت أمام الإغراءات المادية فقد انتهى مصيرها إلى مزبلة التاريخ . وهذه الحقيقة لا بدّ أن تعطينا ثقة غير محدودة بقدرات الشعوب على التصدى لمناورات الاستعمار والانتصار عليه .

خامساً : مقاومة المستعمرين :

يُظهر التاريخ بوضوح الثمن الباهظ الذى دفعته الشعوب ، والتضحيات الجمّة فى سبيل نيل الحرية والاستقلال . فأبطال التاريخ هم الذين قدموا ويقدمون أرواحهم من أجل قضايا الشعوب . وأسمى قضايا الشعوب تتمثل فى رفض السيطرة الأجنبية وتحرير البلاد من المستعمرين الغزاة ، وتوفير الأمن والاستقرار لجميع البشر دونما تمييز بين جنس وآخر أو بين عرق وآخر .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة التاريخية أخذت المقاومة مساراً جهادياً ونضالياً عنيفاً من قبل الشعوب ، على مدى تاريخها الطويل الذى استمر قروناً طويلة ، حين حاولت الدول الاستعمارية إخضاعها وسلب حريتها وإبقائها على تخلفها . مستعملة كل الوسائل ، حتى أنها ذهبت فى ذلك إلى محاولة إبادة بعض الشعوب كلياً .

غير أن هذه الأساليب لم تؤد إلى استكانة الشعوب وقبولها

بالأمر الواقع ، بل على العكس ، أدت هذه الأساليب الوحشية إلى نمو المقاومة فى كل مكان ، مما أرغم الاستعمار على التراجع وإنهاء احتلاله المباشر . غير أن انهزام الاستعمار لم يقض عليه تماماً . فهذا الأخير لا زال يحاول ، كلما سنحت له الفرصة ، الانقضاض على الشعوب الصغيرة من جديد . كما أن ذلك لن يؤدى إلى نتيجة ، فمهما تمادى الاستعمار فى بطشه وبربريته ، فالانتصار فى النهاية لا يكون إلا للشعوب عندما تقرر الحياة بعزة وكرامة . فها هى الولايات المتحدة الأميركية ، بالرغم من آلتها العسكرية الرهيبة ، تنهزم فى فيتنام تحت ضربات الثوار . وها هى فرنسا تضطر إلى ترك الجزائر بعد المقاومة العنيفة التى لقيتها ، والتى دفع ثمنها الشعب الجزائرى أكثر من مليون شهيد . والليبيون بنضالهم العظيم ، اضطروا أربع دول استعمارية على الانسحاب بعد استعمار دام ستين عاماً . هذه أمثلة على التضحيات التى قدمتها شعوب العالم . وهذه التضحيات تترك لنا ميزة تاريخية وحقيقة لا يمكن تجاهلها : فالشعوب التى تكون مستعدة للقبول بالتضحيات من غير الممكن أن تقهر .

تلك هى أهم العبر والدروس التى يجب أن تحفظها وتستلهمها الشعوب من أجل تحررها ومحافظتها على حريتها ، خاصة أن الاستعمار يتحين الفرص دائماً لإعادة مدّ سيطرته على الشعوب الحرة .

الفصل الثامن

الاستعمار خطر قائم



الاستعمار خطر قائم

بالرغم من الانتصارات الكبيرة التى حققتها شعوب العالم على الاستعمار ، إلا أن هذا الأخير لم ينته بعد ، بل إنه ما زال قائماً وإن تغير شكله . فالدول الاستعمارية قطعت أشواطاً بعيدة فى مخططاتها التى ترمى من خلالها إلى إعادة سيطرتها على العالم . وأصبحت تشكل خطراً كبيراً على مجرى الأحداث الدولية ، مما يؤثر تأثيراً كبيراً على حركة عدم الانحياز وعلى استقلال الشعوب فى آسيا وإفريقيا وأميركا الجنوبية ، تلك الشعوب التى تواجه الاستعمار الأمبريالى العالمى الذى تقوده الولايات المتحدة الأميركية . فالصراع بين الشعوب المطالبة بالاستقلال والحرية من جهة ، ومحاولات الاحتواء التى تسعى إليها الدول الكبرى من جهة أخرى ، أخذ

يهدد التوازن الدولى وينذر بعواقب وخيمة على البشرية جمعاء . لذلك ، لا يستطيع أحد اليوم أن يتجاهل هذا الخطر المحدق ، خاصة على الصعيد العسكرى . فالشعوب الصغيرة مثلاً ، لا تستطيع أن تضمن بقاءها واستمرار وجودها فى هذا العالم الذى تتحكم فيه القوى العملاقة . إنها قد تقاوم وتناضل وتضحى ، ولكنها أعجز من أن تستطيع هزم هذه القوى . فجزيرة غرينادا قاومت وتصدّت بكل قواها ، ولكنها لم تستطع هزم القوى التى تفوقها بملايين المرات . فالولايات المتحدة الأميركية أو أى دولة عظمى أو حلف عسكرى دولى قائم أصبحت تستبيح أى دولة أو بلد إن أرادت ، نظراً للقوة التى تملكها ، وبغض النظر عن المقاومة البطولية التى قد يبديها هذا البلد أو ذاك .

هذا الواقع الأليم لموازين القوى الدولية ، يجب أن يدفع الشعوب الحرة إلى التنبه إلى خطر عودة الاستعمار للمواقع التى خسرها ، وإن تبدلت الأدوار بالنسبة للدول المستعمرة . ففى الماضى كانت بريطانيا تدّعى السيادة على البحار والعالم تشاركها فى ذلك فرنسا ، واليوم أصبحت الولايات المتحدة الأميركية هى الدولة الاستعمارية الكبرى التى تعمل لحسابها ولحساب حلفائها .

إن الاستعمار ما زال يتكرر ولكنه يأخذ أشكالاً جديدة ومختلفة . ونلاحظ اليوم أن معظم دول العالم ما زالت

مستعمرة وإن بشكل مغاير . فالوطن العربى وإفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية كلها تخضع لأشكال استعمارية متفاوتة . فبالرغم من الاستقلال السياسى ، فإن معظم الحكّام فى هذه البلدان لا يخرجون عن كونهم دُمى بيد الاستعمار وأراضيهم مستباحة للجيوش وللقواعد الأجنبية . كما أنهم يعيشون فى تبعية تامة للدول الاستعمارية على جميع الصعد : الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فعلى الصعيد السياسى فإن معظم الحكام المحليين لا يتخذون أى قرار إلا بعد العودة إلى مستشاريهم الأجانب . وكثيراً ما يلجأ الاستعمار ، بعد استهلاكه السياسى لبعض الحكام ، وبعد أن يصبح وجودهم مكروهاً من الجماهير ، لامتصاص النقمة ، أو فى حالات أخرى عندما لا يستطيع هؤلاء الحكام القضاء على الإرهاصات الثورية والقومية ، يلجأ إلى إحداث انقلابات عسكرية وتسليم الحكم والسلطات إلي عسكريين يكون قد أعدهم سلفاً ، يكونون أقدر على حماية مصالحه . وفى أحيان أخرى يلجأ الاستعمار إلى اغتيال القيادات الوطنية التى تعيق مشاريعه كما حدث لأنديرا غاندى فى الهند ولسلفادور أليندى فى التشيلى .

أما على صعيد الوطن العربى ، فالهجمة الأمبريالية الاستعمارية الشرسة التى بدأت بزرع إسرائيل فى قلب الوطن العربى ، وشرّدت شعب فلسطين ، ثم انطلقت منها لمهاجمة

لبنان وسوريا ومصر والأردن ، هذه الدولة الغريبة تُعتبر رأس حربة للاستعمار ومصالحه ، يغذّيها بالسلاح والمال ، كما وأنها توصلت بفضل مساعدات الاستعمار إلى امتلاك القنبلة الذرية .

والهجوم الآخر للاستعمار تمثل بالهجوم على ليبيا بواسطة حلف الأطلسى ، وهذه الاعتداءات ليست فى الحقيقة إلا مقدمات لاحتلال الوطن العربى بأكمله من المحيط إلى الخليج . والاستعدادات لعملية احتلال الوطن العربى تتمثل اليوم بإعداد فئة من الحكام الخونة الذين ينفذون مآرب الغرب ، ضاربين بمصالح وطنهم عرض الحائط .

أما حجج الاستعمار الواهية التى يتذرع بها فتقوم على الادعاء بحماية المواصلات العالمية من الإرهاب . لأن تلك الخطوط تعتبرها الولايات المتحدة الأميركية حيوية لمصالحها ، وكذلك الأمر بالنسبة لحلفائها من الأوروبيين الذين زجّوا بأساطيلهم فى المياه الدولية الخليجية ليؤمنوا استمرار تدفق النفط إلى بلادهم .

لكن خطط الاستعمار لا تتوقف عند هذا الحدّ ، كما أن هذه الحجج التى يقدمها ليست سوى إدعاءات ترمى فى نهاية المطاف إلى احتلال النقاط الحيوية الاستراتيجية فى الوطن العربى وهى : مضيق جبل طارق وقناة السويس وباب المندب

والخليج العربى . بالإضافة إلى السيطرة على كل حوض البحر الأبيض المتوسط .

وهكذا نلاحظ بأن هنالك خطراً داهماً يتهدد مستقبل الأمة العربية ، هذه الأمة التى هى بمثابة منطقة استراتيجية ممتدة من المحيط إلى الخليج .

فالاستعمار الذى احتل فلسطين يحاول الآن أن يوسع رقعة احتلاله حيث احتل قسماً من لبنان وأجزاء أخرى من مصر وسوريا والأردن . وهو الآن يحاول تجميع قواه لتدمير سوريا وللسيطرة عليها بعد أن احتل الضفة الغربية وغزة ليتجه بعد ذلك من المشرق العربى ، عبر مصر ، إلى المغرب العربى ويتسنى له ، بعد أن يكون قد دمّر الوجود العربى ، إنشاء أمبراطورية صهيونية ويسود شعب الله المختار كما يدّعى .

أما قوات الانتشار السريع ، التى أنشأتها الأمبريالية الأميركية ، فأصبحت بمثابة قواعد عسكرية متحركة تجوب البحار والمحيطات حاملة آلات الدمار والخراب من الأسلحة التقليدية إلى الرؤوس النووية . هذا بالإضافة إلى قواعد الرؤوس النووية العابرة للقارات والمنصوبة فى مناطق استراتيجية من العالم ، يساعدها فى ذلك الأقمار الصناعية التى تقوم بالمهام التجسسية . ولم يكتفِ الاستعمار بجميع هذه الوسائل ، بل لجأ أيضاً إلى الأسلحة الاقتصادية والثقافية

والنفسية . وبذلك أصبح الخطر يحيط بنا من جميع الجهات وعلى كل المستويات على الرغم من ادعاءات سحب الصواريخ المتوسطة المدى من مواضعها فى أوروبا.

فالاستعمار الذى حاربناه فى الماضى ، يحاول الآن العودة بأشكال متعددة ومختلفة ، تسبب بانتكاسات قوية لجميع الثورات التحررية . لذلك فإن الحرية التى حصلت عليها الشعوب نتيجة لنضالها المرير ستصبح ناقصة ومهددة أو معدومة . ومن هنا ، ومن أجل المحافظة على الحرية أو استردادها تجد الشعوب أمامها خياراً وحيداً يتمثل بتحمل المسؤوليات التاريخية وتقديم التضحيات بشجاعة وصبر . فحتى تنتصر الحرية فى العالم أجمع ، لا بدّ أن يستمر الصراع مع الاستعمار مهما كانت الظروف والأحوال .

وهكذا وبعد أن تم استعراض مواطن وبواعث الخطر القائم الذى يهدد أقطار العالم كافة ، أصبح لزاماً على كل الشعوب المتطلعة إلى الحرية والسلام والتقدم، أن تبدأ بمراجعة ودراسة الوسائل والسبل المناسبة للاسراع فى تلافى وقوع الدمار النهائى للبشرية ، التى يتسلط عليها حكام باعوا أنفسهم للشيطان وجلبوا المآسى والويلات للشعوب . وبخاصة الكثير من حكام العالم الثالث الذين تمكن الاستعمار من خلالهم من قهر الشعوب وسلب ثرواتها . لذلك فالاستعمار أصبح لا يحتاج إلى تحذير أو تهديد ، بل إلى زلزال عنيف يعزّ وجوده ويدمّر جميع مرتكزاته وأصوله وقواعده . والتنبيهات

والتحذيرات ليست موجهة إلى الاستعمار ولا إلى عملائه فى الـداخل فحسب ، بـل إلى الشعوب ، صـاحبة المصلحـة الحقيقية فى الحياة الحرة الكريمة . فهى بالتالى وحدها معنية بالأمر .

فالشعوب هى الآن أمام امتحان ، وأمام مواجهة تاريخية جديدة ضد أخطار هذا الاستعمار الذى يُعتبر امتداداً للاستعمار القديم وتجسيداً له بثوب جديد . فلا بدّ للشعوب من أن تكون أكثر وعياً وأعمق تفكيراً وأشدّ صلابة وأقدر على المواجهة . لأن هنالك استعماراً أميركياً ـ أوروبياً غربياً زاحفاً يريد أن يمزق الشعوب من جديد . وهذا لا يعنى التشكيك بكل الناس وبكل الأمم. لكن التاريخ علّمنا أن نكون حذرين ومتيقظين . وبهذا الأسلوب يمكن أن نصل إلى القاعدة السليمة التى تبنى عليها العلاقات الدولية وحتى العلاقات مع حركات التحرر فى العالم والقوى الأخرى التى ترفع شعار معاداة الاستعمار .

ومما لا شك فيه أن مصلحة المستعمرين تتحقق بعدم الاستقـرار وبزيـادة التمـزق بين الشعـوب والأمم . فغـايـة الاستعمار الأساسية ترمى إلى تحويل الدول إلى مناجم ومزارع له ، وتحويل الشعوب إلى عبيد . فالاستعمار وعملاؤه يعملون على أن تبقى الشعوب رازحة فى الظلام والجهل حتى تسهل مصادرة استقلالها وسرقة خيراتها . لذلك سعى فى محاولات دائمة للاطاحة بالثورات التحررية ، لأن هذه الثورات تشكل

خطراً على مصالحه . والأسلوب المتّبع اليوم للإطاحة بالثورات والقضاء على حركات التحرر ، لم يعد الأسلوب المباشر ، بل أصبح أسلوباً غير مباشر لا يعتمد على السلاح والجنود ، بل على العملاء الذين يزرعهم الاستعمار فى كل مكان . وبواسطة هؤلاء العملاء ينفذّ مآربه الدنيئة . غير أن قوى العمالة والخيانة لا بدّ لها من أن تهزم فى النهاية أمام قوة الثورة . ولن تنجح فى النهاية الأمبريالية الأميركية التى تحاول أن تتلقف الأعلام الاستعمارية المنهزمة فى آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية .

غير أن النصر النهائى المحتم لصالح قوى التحرر والتقدم لا يحجب عن أعيننا ولا يبعد عن بالنا كون الخطر الكبير يأتى من الدول الاستعمارية لأنها تريد من الشعوب أن تكون منبعاً للمواد الأولية لصناعتها ومصرفاً لمنتوجاتها . وفى نفس الوقت متنفساً لها للسياحة والترفيه حيث أنها تفتقر للشمس والشواطىء الصالحة وللصحراء . والاستعمار جاد بكل الوسائل فى تحقيق أهدافه بالوسائل العسكرية خاصة . وما المناورات والنشاطات العسكرية الأميركية ـ الأوربية ، والتى تجرى بشكل مكثّف ، إلا تحضير واستعداد للوثوب فى أى لحظة على الشعوب لإعادة استعبادها من جديد .

وأمام هذه التحديات الاستعمارية التى ترمى إلى إعادة

السيطرة على العالم ، والتى استخدمت جميع الوسائل لتحقيق أهدافها ، لا بدّ من التنبيه والاستعداد ، وعلى كل الصعد لمواجهة هذه التحديات .

وقد جزأ الاستعمار الأمة العربية لإضعافها كى يتمكن من السيطرة عليها ، وهكذا يفعل الاستعمار مع الدول التى يخشى قوتها . فبعد الحرب العالمية الثانية قُسمت ألمانيا إلى قسمين شرقى وغربى خوفاً من قوتها .

لذلك ، ولأننا ندرك هذا الأمر ، ونعرف مخططات الاستعمار يتوجب علينا أن نعى ما يتوجب فعله أولاً بأول ، ومن هنا فإن أهم الوسائل التى يجب أن نعدّها لمواجهة الاستعمار تكون بإعادة الأمة العربية إلى سابق عهدها ، أى موحدة وقوية ، فقد كانت هذه الأمة فى طليعة الأمم الحضارية المتقدمة فى العالم .

كما أن العرب مطالبون أيضاً بالعمل على استغلال كل طاقاتهم وإمكاناتهم خصوصاً استغلال المياه الجوفية المتوفرة بكميات هائلة فى بقاع عديدة من الأراضى ، فى الوقت الذى تعيش فيه المدن والقرى فى أزمة حياة خانقة ، وحيث النهر يطال مساحات واسعة . ثم ومن ناحية أخرى لا بدّ من زيادة النسل ، ووضع برنامج زمنى محدد كى يبلغ تعداد الوطن العربى المليار من البشر . وبذلك لا بدّ من إلغاء جميع

الأجراءات التى اتخذتها بعض الأقطار للحدّ من النسل لأن إمكانات الأمة العربية المادية تكفى مليارات البشر لو أحسن استغلالها . وإذا كانت الإمكانات الاقتصادية متوفـرة ، فإن الحاجة الماسة لزيادة السكان فى الوطن العـربي هى فى الأساس للردّ على الأخطار الأجنبية .

وإذا أرادت شعـوب العالم أن تتهىء للتصـدى للهجمة الاستعمارية الجديدة ، لا بدّ لها أولاً وقبل كل شىء أن تتحول فى نشاطها الاقتصادى إلى الإنتاج وذلك يتطلب إعادة النظر فى مجمل السلوكيات والتخصصات وطرق الاستهلاك . وهنا تبرز أسس جديدة للتعليم والتربية . إذ لا بدّ من تبديل وتعديل الأسس التعليمية والتربوية السابقة وإحلال أسس جديدة تسمح للجيل الجديـد بالتـزود بالعلوم والمعـارف التى تمكنه من السيطرة على التكنولوجيا الحديثة وتقوده إلى عصر الذرة .

فى النهاية لا بدّ من التأكيد على استمرارية النضال ، بكل الوسائل ، حتى الوصول إلى قيام عالم حرّ خال من الاستعمار بكل أشكاله وإفرازاته ، وحيـن تصبـح البـحـار بـحـيرة سـلام خالية من السفن الحربية الاستعمارية .

ومهما بدت الأخطار جسيمة ، ومهما اشتـدت الصعـوبات وبـالرغم من القـوى الماديـة الهـائلة التى تملكهـا الـدول الاستعمارية ، فإن ثورة الشعوب سوف تنتصـر فى النهايـة

وتجرف فى طريقها كل المستعمرين وكل العملاء المأجورين ، إذا عـرفت الشعـوب كيف تستفيــد من الـدروس والعبـر التاريخية .

وليس أمـام الشعوب إلا أن تعـد العدّة للمـواجهة مـع الاستعمار ، لأن المعركة معه قضية حياة أو موت . وبالتالى لا بدّ من الانتصار عليه ، طالما إن جميع الشعوب ستتضافر وتتعاون لهزيمته .

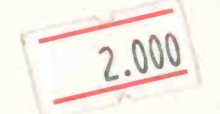


فهرس

حسن يوسف الموسي

مطابــع اديتــار

احدى مؤسسات الشركة العربية الليبية للاستثمارات الخارجـية
كاليرى ـ ايطاليا ـ هاتف : 2003 / 070 ـ مبــرق : 791055


2.000